

# ريموند لل

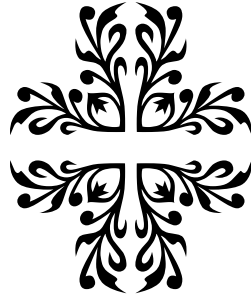
## أول مبشر بين المسلمين

RAYMUND LULL

FIRST MISSIONARY TO THE MOSLEMS

عن الإنكليزية - للدكتور زويمر

SAMUEL MARINUS ZWEMER



«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى  
ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»

www.muhammadanism.org  
January 10, 2008  
Arabic



Statue of Raymund Lull at Palma, Majorca.

تمثال في مدينة بالما على جزيرة ماجوركا

نصب تذكراً لريموند لل أول مبشر مسيحي بين المسلمين في إفريقيا

RAYMUND LULL

حياة

# ريموند لل

أول مبشر بين المسلمين في القرون المظلمة

لواضعها

الدكتور صموئيل زويمر

عربها عن الإنكليزية

خليل رزق

يطلب من المطبعة بشارع المناخ نمرة ٣٧ بمصر

١٩١٤



Raymund Lull

# ريموند لل

أول مبشر بين المسلمين

## إهداء الكتاب

### لكنييسة الله المقدسة في إفريقيا

سيكون في يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩١٥ تذكار مرور ستمئة سنة على استشهاد ذلك البطل ريموند لل فلذلك نهدي تاريخ حياته المجيدة لكل المؤمنين في إفريقيا المقدسين في المسيح يسوع المدعوين قديسين مع جميع الذين يدعون باسم الرب يسوع في كل مكان لهم ولنا راجين أن كنييسة الله في إفريقيا تكمل عمل ذلك البطل في القارة المظلمة في القريب العاجل

## كلمة للمعرب

للغربيين اهتمام زائد بوضع تراجم مشاهير الرجال (ليس رجالهم فقط بل ورجالنا أيضاً) وتخليد محاسن الأعمال ولهم ولع شديد في رفع شأن من تسنم ذرى المعالي بجده واجتهاده ومن أكبر هؤلاء الرجال شأناً موضوع هذا المؤلف ريموند لل أول مبشر أوروبي في إفريقيا حيث نال اكليل الاستشهاد محبةً في المسيح يسوع

ويرى القارئ أهمية هذا الكتاب إذا عرف أنه ترجم سابقاً إلى اللغة الألمانية واللغة الدنماركية

ولذا أردنا تعريب هذه الحياة سائلين المولى أن يجعله فائدة لأعضاء كنيسة المسيح في الشرق كي يحذو الكل حذو ذلك الرجل العظيم ويتمموا أعماله المجيدة بإيمانه الثابت مترنمين بالقول إن كان الله معنا فمن علينا

خليل رزق

## مقدمة

بقلم الأَخ مخائيل أفندي منصور المبشر المشهور

«سئل علي بن أبي طالب كيف نضع إذا ظهرت الفتن فقال: كونوا كأصحاب عيسى عليه السلام  
نشروا بالمنشير وعذبوا بالنار. موت في طاعة الله خير من حياة في معصيته» (مغانم الحكم)

المؤمنون في كل زمان كالأنوار الطالعة والشموس الساطعة بأبهم اقتدينا اهتدينا ولا  
ريب ان الله تبارك اسمه يخرج أضواء اللآلي من أظلم المحال فقد ولد المترجم في وسط نار  
مضطربة وظلمة دامسة نار الحروب الصليبية وظلمة الجهالة الكثيفة فكان رسول محبة ونور  
لأن ذلك الزمن كان لا بد له من قوة إلهية

ولد المترجم في اسبانيا سنة ألف ومئتين وخمس وثلاثين ميلادية وقد تحلى بالعلم  
وازدان بمعرفة الفنون الجميلة كالشعر والموسيقى على أنه أدرك شأو الرفعة كابرأ عن كابر  
ولكن لم يكن

يخطر في باله أو يدور في خلدته شيء عن المخلص الكريم مصدر المحبة وملك السلام غير أنه كان يوماً يقطع شيئاً من الشعر في غرض دنيوي فرأى على غرة صورة المسيح مصلوباً مقاسياً أشد الآلام ومكلاً بالأشواك وآثار المسامير في يديه ورجليه فتأثر بعض التأثر الذي لم يبق إلا يسيراً ثم نظر هذه الصورة مرة أخرى فأخذت قلبه وملأت مشاعره وملكت قياده وحملته على أن يعزم عزمًا صادقاً على ترك ما هو فيه من الأمور الزائلة الباطلة ويتبع الرب يسوع المسيح ويسير في خطواته المباركة فيبشر المساكين ويرد الضالين فسافر أول مرة إلى تونس ليفتح الأبواب ويرشد القلوب ويحمل لواء المخلص في تلك الربوع النائبة فصادف مشاق لا تطاق وتجشم أخطاراً شديدة لا قبل لطبيعته بها غير أن الله قواه فاستعذب في حبه العذاب وقد تعرض للموت الأحمر ولكنه لم يبال به وأخيراً نال حظ الشهادة ليسوع وباسم يسوع فقد انقض عليه صغار القوم وجهلتهم انقضاض الصاعقة ورموه بالأحجار ورجموه كما رجم من قبله استفانوس أول شهيد في النصرانية فقضى ما عليه من المسؤولية



وتتم أمر ربه ( اذهبوا للعالم أجمع ) وبشر بلسانه وقلمه ودمه فكان حظه مثلثاً ومما يدهش له القارئ أن المترجم طلع نجمه وبرز بدره وسار ذكره قبل لوثيرس زعيم الإصلاح فهو قدوة للمسيحيين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ومما يدهش له الفؤاد أيضاً أنه تلاماً نوره أيام كانت الحروب الصليبية تخضب وجه الأرض بالدماء وتزيل المحبة والسلام فكان كالصبح المنير عقب ليل حالك أو كأنه ماء في الرمضاء فختم حياته المباركة بنموذج الحياة المسيحية وهو وإن مات يتكلم بعد وكان استشهاده سنة ألف وثلثمئة وخمسة عشر وله من العمر سبعون سنة نسأل الله أن يجعل هذه الكلمات المسطورة والأنباء المأثورة عن رجل الاجتهاد المسيحي والحياة المقدسة أكبر باعث لنا على تضحية النفس والنفيس في خدمة المخلص الكريم امتثالاً لأمره وحباً في خلاص النفوس التي سفك دمه من أجلها وأعلاه لمجده له الحمد والمجد والقوة في الكنيسة إلى الأبد آمين



---

«تجري حوادث عصر ما في وقت واحد ولكنها لا تكتب دفعة واحدة. فيسافر المبشرون  
براً وبحراً لنشر أعمالهم بتعب محبتهم وبيني اللاهوتيون آراءهم ويذبح المضطهدون المؤمنين  
ويسعى الكهنوت في إعلاء شأنهم ويقاومهم في ذلك الملوك كل ذلك مع أمور أخرى كثيرة  
تحصل معاً في وقت واحد وزمان واحد»  
«تاريخ اللاهوت للدكتور شيد»

# ترجمة ريموند لل

## الفصل الأوّل

أوروبا والعرب في الجيل الثالث عشر

(١٢٠٠ - ١٣٠٠ ب. م)

لا يمكننا أن ندرك شخصاً من غير أن نعرف الظروف المحيطة به. ترجمة الفرد كخيطة والتاريخ كنسيج لحمته وسداه الوقت فإذا أردنا أن نسحب الخيط من غير قطع فلا بد أن نحل النسيج بأكمله. وكذلك إذا أردنا إدراك ريموند لل فعلينا أن نرجع بالتاريخ ٧٠٠ سنة ونلقي نظرة على أوروبا والعرب قبل فجر الانتعاش وبزوغ الإصلاح. أن ظل العصور المظلمة كان ثقيل الوقع على الجيل الثالث عشر غير أنه كان كثير الحوادث في أوروبا فكانت امبراطورية رومية العظيمة أخذة في الزوال

وبدأت بعض ولايات ألمانيا وإيطاليا في العلو ونمت الحرية المدنية التي وإن كانت في ذلك الوقت في طفوليتها إلا أنها أثمرت بامتداد الآراء وتأسيس الجامعات وضمت انكلترا ونورمانيا وسكسونيا معاً وصاروا شعباً واحداً وامضي قانون انجلترا السياسي الشامل وانتخب مجلس النواب الأول. وقبيل ولادة لل غزا التتاريون الروس ونهبوا موسكو.

وكان العرب والمسيحيون في نزاع دائم وشجار مستمر ليس لأجل امتلاك بلاد المقدس فقط بل للتسلط على عالم الشرق. وان تكن قد انتهت هذه الحروب الطويلة بانكسار المسيحيين إلا أن روح الحروب الصليبية عاشت إلى الآن في قلوب بعض المسيحيين عوضاً عن روح المحبة الحقيقية

وان الجيل الذي عاين سقوط عكا شاهد أيضاً أفول نجم بغداد وانقراض الخلافة فيها. وفي اسبانيا غزا فرديناند ملك الكستيل مدينة بعد أخرى من بلاد المغاربة الذين كانوا يستعمرون غرناطة العظيمة وفي سنة ١٢٤٠ بدأ صعود نجم الأتراك العثمانيين وكان لل حينئذ في الخامسة من عمره وقبل

أن يبلغ العشرين فشل لويس التاسع في حربه الصليبية وأسره سلطان مصر. وقد عزلت الامبراطرة الباباوات وخلعت الباباوات الامبراطرة وابتدأ في ذلك العهد التفتيش في اسبانيا عن اليهود والهراطقة كي يسوموهم أصناف العذاب وصنوف الردى ووضعت في ذلك الوقت أساسات الكنيسة الاسقفية الكبرى في كولونيا وفي باريس كانوا يجربون الجبار الجديد البارود. والخلاصة أن أوروبا بأجمعها اشتعلت بسكرة التغيير السياسي وآمال الهيئة الاجتماعية. وقد قامت في الجيل نفسه ثورات فجائية في اسيا قلبت كيائها إذ زحفت القبائل المغولية تحت قيادة جنكزخان على بلاد الشرق واندفعت عليها كالسيل في الليل. وسقطت خلافة بغداد سقوطاً لا قيام بعده أمام هجوم هلكوخان وقد خلفتها الدولة السلجوقية في سلسلة جبال أناتوليا وكانت الحرب في أشدها بين الأتراك والمغوليين طمعاً في التسيطر على العالم

وقد ظهرت فائدة الحروب الصليبية في كسر شوكة السلطتين الكبيرتين في القرون

الوسطى (الكنيسة

والامبراطورية) التي تسلطتا زمناً على عالمي الأفكار والأعمال وقد تلاشى نظام الإقطاع واخترع الورق والبوصلة المغنطيسية والبارود وبدأ عصر الطباعة ولم يكن الوقت حينئذ ظلمة حالكة ولا فجر منير بل كانت ديوك النهضة تصيح. وفي سنة ١٢٤٩ أسست جامعة أكسفورد وفي سنة ١٢٦٥ ولد دانتي الشاعر المشهور في فلورنسا واجتهدت الفلاسفة في نصره الحق ولكن كان عملهم جعجعة من غير طحن غير أن ثلاثة من العلماء خدموا الحق والعلم أجل خدمة وقد مات اثنان منهم في السنة التي كتب فيها لل كتابه "Ars Demonstrava" وقد جاهد جربرت وروجر باكون جهاداً حسناً في العلوم الطبيعية ولكن عدهم عوام الناس سحرة ورماهم الاكليروس بالهرطقة وكان جزاؤهم السجن. وقد عمل ماركو پولو أشهر المكتشفين لآسيا ما فعله كولومبس لأمریکا وكان عله هذا حلقة في سلسلة أعمال العناية الربانية التي أخرجت العالم الجديد للنور.

وقد قال جيبون بحق إن كان الجيلان التاسع والعاشر جيلى ظلام فالثالث عشر والرابع عشر جيلا سخافات وخرافات.

وكانت الأفكار لم تنزل في قلق شديد من القضاء المرعب الذي كان يقع على الهراطقة والعصاة. ولم تبيّن خراط ذلك القرن اكتشافات ماركو پولو الثمينه إذ كان العالم كما عرفه لل عالماً مجهولاً. فكانوا يمثلون الأرض بقرص مستدير يحيطه الاوقيانوس وكانت مركز دائرته القدس أو أورشليم وزعموا أن الفردوس هو الشرق الأقصى وان جوج ومأجوج في الشمال وان أعمدة هركليس منتهى الغرب الأقصى (انظر وجه ١٦) ويلد للقارئ أن يعرف أن أول تحسين عظيم في هذه الخراط كان في كتالونيا حيث عاش أسلاف لل وحيث عملت خريطة كتالان الشهيرة سنة ١٣٧٥ الموجودة الآن في مكتبة باريس وهي أول خارطة للعالم نبذت كل هاتيك الأقوال الكاذبة وضمت الهند والصين إلى خريطة العالم.

وأما بقية خراط القرون الوسطى فكلها أدنى شكلاً من المرسومة. وقد حجب الصناع الماهرون جهلهم واجتهدوا أن يبرهنوا دوران الأرض بصور رسموا فيها بلداناً بأبراج ومدناً محصنة وأسداً زائرة تجول في غابات وهمية.

أما آداب وأخلاق تلك القرون الوسطى فهي عبارة عن مناقضات مفرعة وليت هذا التناقض اقتصر على وجوده في بلاد مثلاً ولكنه كان يجتمع في الفرد الواحد إيمان عظيم ووهم سخيف أو طهارة ملائكية وشهوة شيطانية ففي المسيحيين مثلاً اجتمع إنكار الذات وعمل الإحسان كما وقسوة بربرية للكفرة واليهود والهراطقة. وقد دفعت أموال طائلة لفداء المسيحيين الذين أسره العرب كما ونهبت الكنيسة أموالاً ضخمة كي تضطهد بها الذين زاغوا عن الإيمان وما وطأت أقدام جودفراي باولون مع جيوشه الصليبية (وهو جودفراي الذي رفض أن يلبس اكليلاً من ذهب في المكان الذي لبس فيه سيده المسيح اكليلاً من شوك) أرض المقدس حتى قبلت جنوده الأرض وخرروا على ركبهم سجداً يتلون صلوات التوبة وآي الخشوع ولكنهم ما أسروا المدينة حتى ذبحوا ٧٠ ألفاً من المسلمين وحرقوا اليهود في مجامعهم وخاضوا في غمار الدماء إلى القبر المقدس ليرفعوا تشكراتهم!!!

وقد عزل أحد الباباوات بتهمة الفحش بقربياته وعدم الأمانة



والقتل والتجديف. وكذلك تاجر الكثيرون منهم بالرتب الكهنوتية. وشاع في روما بين رجال الاكليروس اتخاذ السراري والحظايا وارتكاب الموبقات والدنايا. وكان انسونت الرابع الذي جلس على عرش الباباوية في نفس السنة التي ولد فيها لل طاغية ظالماً جداً وتزاحم نقولا الثالث ومارتسن الرابع اللذان كانا باباوين قبيل انتهاء الجيل الثالث عشر على كرسي الباباوية واشتهر الأول بالسلب والنهب والتحزب للأقارب وازداد شره ازدياداً جعل دانتي الشاعر المشهور يصفه في إحدى قصائده بأنه في أحد دركات الجحيم.

وقد قال مارتسن كثيراً ما احتوت آداب ذلك العصر على مزيج من آداب المسيحية ومبادئ أرسطو طاليس وكانت الآثام على نوعين جسدية وروحية عرضية ومميتة وكان طريق الكمال في عرفهم هو التنسك والرهبنة والعزوبة والطاعة.

وجمع شعر ذلك العصر بين المتناقضات المتباينات جمع بين التقوى والشهوة وبين تكريس النفس وعريضة السكرير.

ومع كل ذلك كانت توجد أشعار دينية غاية في التقوى

فان سبعة ترنيمات الكنيسة في القرون الوسطى دعت أشهر المترجمين للمباراة ولا يسع القارئ عند تلاوته لترنيمة (Stabat Mater Dolorosa) أو (مريم واقفة عند الصليب) إلا أن يندهش من رقتها وبلاغتها وكذلك إذا قرأ (Dies Iræ) أو يوم الدين إلا ويأخذه الرعب من قوة معناها وتأثيرها المخيف وهاك ترجمتها

يا شعوب الأرض هبوا	واطلبوا دار السلامة
قبلما يأتي زمان	فيه لم تنفع ندامة
ذاك يوم مستعد	فيه تجميع الشعوب
حيثما الأشرار تبدو	راجفات بالذنوب
بينما الأبواق تدوي	اقبلوا يا سامعينا
تنظروا الاحياء تجري	لا تفوت الراقدين
وكذا الأموات تأتي	من أعاميق البحار
ووحوش البر تعطي	ما تغذتها الضواري



خريطة العالم كما رسمت في القرن العاشر. وهذه أحسن خريطة وجدت في أيام ريموند  
لل ومنها تظهر أفكار معاصريه. فالجزء الأسود الذي في وسط الخارطة هو البحر الأبيض وبه  
الجزائر وعلى اليسار أعمدة هرقليس التي زعموا أنها منتهى الغرب الأقصى ونهر النيل يصب  
في البحر المتوسط شرقاً والقدس مركز العالم والفردوس في الشرق وجوج وماجوج في الشمال  
وما أعظم الفرق بين المعارف في أيام لل وبينها في أيامنا وكذلك ما أعظم الفرق بين مسؤوليته  
ومسؤوليتنا!

حينما الأملاك تأتي ولهب النار فيها  
 أين عصيان الخطاة وتواني جاحديها  
 يطلبون الموت طوعاً وهو لا يأتي إليهم  
 وجبال الأرض تأبى أنها تهوي عليهم  
 انه يوم رهيب فيه تنحل العناصر  
 وترى الديان يقضي بينما تجلى السرائر  
 يهلك الأشرار حالاً وينادي الصالحينا  
 احرزوا الملك المهيا منذ بدء العالمينا

وقد كان الجيل الثالث عشر أيضاً جيل خرافات وخيالات وعصر رؤى وعجائب وتعصب  
 وقد جالت فرقة الجالدة (وهم فرقة دينية كانت تسير في الشوارع عارية وتجلد أكتافها  
 بالسياط) من مدينة لمدينة منادين بالتوبة متمنطقين بحبال لابسين خفيف الثياب أو بالحري  
 عرايا جالدين أجسامهم بالسياط في الشوارع. وقد انتشرت هذه الطائفة كانتشار العدوى من  
 إيطاليا إلى بولاندة مذيعين تعاليماً متطرفة مسببين شغباً وقتلاً.

وفي ذلك العصر زعموا أن امرأة تدعى كاترين وفرنسيس الراهب رأيا رؤيا وقيل عن الأخير أنه من كثرة فكره عن آلام المسيح وموته طبعت على جسده الآثار التي كانت في المسيح ومات عشقاً في المسيح. وانشد مؤلف أجمل أغنيتين في ذلك العصر فيهما أقصى التعصب إلى تعذيب نفسه كي يكفر عن خطاياہ وليجلب الخير للآخرين. ورأى بطرس نولسكو سنة ١٢٢٨ رؤيا العذراء مريم فنذر كل أمواله من ذلك اليوم لشراء حرية المسيحيين من عبودية العرب وقد أوجد هيئة تسلم أعضاؤها أنفسهم حتى للعبودية رغبة في إنقاذ من يريد من المسيحيين أن يعتنق الإسلام. وازداد عدد وقوة الرهينة في غضون الجيلين الثاني عشر والثالث عشر وكونوا منهم جيش الباباوية المستمر وكانوا متقدمين في العلوم والفنون والصنائع. وكان الرهبان الفرنسيون من أقوى الفصائل وكان لهم في سنة ١٢٦٤ ٨٠٠٠ دير و٢٠٠ ألف راهب وكان بعض هؤلاء الرهبان قديسين وبعضهم لودعيين وبعضهم شهوانيين ولكننا نرى (مع غباوة وجهل الاكليروس المطبق) في القليلين منهم عبقرية ذهنية

وأعمالاً عجيبة تظهر إنكار ذاتهم ومحبتهم الفائقة.

وانتشر في ذاك الجيل مذهب التصوف الاختياري ولم تكن الغاية منه الفلسفة بل الخلاص الشخصي وخصوصاً بين سيدات الولايات الواقعة على نهر الرين. وبذلت المساعي لإصلاح الكنيسة ولزم الاكليروس وكانت الشعبان الألبية والولدنسية متقدمتين في البروتستانتية وقامت أيضاً طوائف أخرى عديدة أقل من تلك نبلاً ونقاوة في المعتقدات وانتشرت تلك الطوائف من شرق اسبانيا إلى شمال ألمانيا وأجمعت كل هذه الطوائف على مقاومة سلطة الاكليروس وحتى سلطة المملكة أيضاً.

فتلك كانت حالة أوروبا السياسية والعقلية والأدبية والدينية في أيام ريموند لل.

وكذلك. كان العالم الإسلامي في حالة هيجان إذ علم الصليبيون العرب دفعة واحدة قوة المسيحية وضعفها في القرون الوسطى. وكانت معركة تولوز التي أريق فيها دم ٢٠٠ ألف مسلم اعلاناً لانتهاة قوة الإسلام في اسبانيا. فلم تكن سيادة العرب

وتربيتهم في غرناطة إلا كتلاًؤ الشمس عند مغيبها زاهية ولكن سريعة الزوال. إلا أن ما خسره العرب في الغرب ربحوه في بلاد الشام وفي الشرق وفي سنة ١٢٥٠ تملك السلاطين المماليك على مصر ووصلت مصر تحت رئاسة بيبرس الأول إلى أعلى قمة المجد وكان الإسلام قوباً في الجيل الثالث عشر ليس بنصرات سيفه فقط بل بنصرات القلم أيضاً والفلسفة الإسلامية كما شرحها الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وبالأخص كما شرحها ابن رشد علمت في جامعات أوروبا وترجمت فلسفة أرسطو طاليس إلى العربية قبل أن تترجم إلى لغات أوروبا.

وكانت العرب في القرون الوسطى غالباً المستودع الوحيد لعلوم الدنيا وكانت الأمم الغربية في ذلك الحين جاهلة جهلاً لم يمكنها معه معرفة قيمة الآثار القديمة أما العرب فقد حفظت تلك الأشياء بترجمتهم علوم اليونان إلى العربية.

ووصلت بعض هذه العلوم لأوروبا بواسطة الصليبيين ولكنها أتها قبل ذلك بطريقة أعم بواسطة المدارس العربية التي انشئت في اسبانيا ولم تكن أي مملكة في أوروبا ملتصقة بالإسلام

في الخير والشر كولايات اسبانيا وكان هناك ميدان للنزاع ليس فقط بالسيف بل أيضاً بالقلم. وشدت الحرب أوزارها لمدة ثلاثة قرون حاول المسيحيون فيها نصر لواء الحق والغلبة على المسلمين. وفي أثناء هذه المعارك لعب أسلاف لل دورهم. وكانت قوة العرب في كل حياة لل في غرناطة ضد الولايات الاسبانية المتحدة إذ لم يطرد العرب من جنوب أوروبا قبل سنة ١٤٩٢.

وقليل ما يمكن أن يقال عن تبشير الإنجيل في القرن الثالث عشر إذ كانت الأنفس التي أنارها الروح القدس تشعر باحتياج العرب والمغول الروحي لتبشرها بالإنجيل قليلة جداً وقد أرسل لويس التاسع في سنة ١٢٥٦ وليم دي ريرك بمهمة سياسية تبشيرية للخان الكبير في آسيا الوسطى. وفي سنة ١٢١٩ دخل فرنسيس بشجاعة طائشة لمجلس السلطان في دمياط وأعلن له طريق الخلاص مفضلاً أن يحرق بالنار ليبرهن إنجيل المسيح!!

وكرس الجنرال الدومينكي المسمى ريموند دي پنفرتي الذي مات سنة ١٢٧٣ نفسه لبشرب بين العرب ولكن عبثاً حاول.



وكان روح التبشير الوحيد في القرنين الثاني والثالث عشر هو روح الصليبيين كما قال المسيح إن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون غير عالمين روح الإنجيل ولكن أقام الله ريموند عبده ليبرهن دفعة واحدة لكل العيون التي كانت تشخص لتلك الحال ما كان يمكن للصليبيين أن يصيروا وما كان يمكنهم أن يعملوا لأجل العالم لو حاربوا لأجل الصليب بسلاح ذاك الذي كانت كلماته الأخيرة المغفرة والسلام ولكن وا أسفاه كان ريموند لل كصوت صارخ في البرية وحيداً فريداً في جيله المظلم.



ما كنت لأفهم حالة أهل اسبانيا بتكبرهم واحتمالهم للمشقات والصعوبات واقتصادهم في عيشتهم حتى رأيت البلاد الساكنين فيها... لأن بلادهم وعوائدهم حتى وهيئة وجوههم كانت كأنهم عرب البادية - من كتاب الحمراء للأرفن

## الفصل الثاني

### مسقط رأسه ونشأته

(١٢٣٥ - ١٢٦٥)

ولد ريموند لل من عائلة سليلة في المجد في پالما من أعمال جزيرة ماچوركا في الأرخييل البلياري سنة ١٢٣٥ وولد أبوه في يرسلونا من عائلة كتالانية عريقة في السؤدد ولما أخذ يعقوب الأول ملك الأراجون جزيرة ماچوركا من العرب كان والده أحد جنوده الظافرة فاقطعه الملك أرضاً واسعة من التي أخذوها جزاء لإخلاصه ومكافئة لخدماته. ويجدر بنا أن نبين شيئاً عن تلك الأراضي فنقول أن أوروبا الجنوبية من الاطلانطريقي إلى الادرياتيقي تماثل شمالي إفريقيا في طقسها ومناظرها الطبيعية. ولما عبرت العرب إلى بلاد الأندلس واحتلت جزر البحر الأبيض الجنوبية استوطنوا بسهولة كأنهم في بلادهم وقد خلفوا أثراً لهم ليس في أسماء الأنهر والجبال والصناعة فقط بل وفي أخلاق الاسبانيين وآدابهم وهيئتهم الاجتماعية أيضاً وتتبع كتالونيا

الولاية الواقعة في شرق اسبانيا بلد أسلاف لل وبلد لل نفسه زمن صباه وهي نحو ١٣٠ ميلاً عرضاً و١٨٥ ميلاً طولاً ولها ساحل يبلغ طوله ٢٤٠ ميلاً وكذلك بها سلسلة جبال في الشرق وثلاثة أنهر ليست صغيرة. وأرضها مشجرة ومراعيها خصبة وطقسها صحي رغماً عن ما يكتنفها من كثيف الضباب وغزير الأمطار.

فتلك الجبال وذلك الطقس وهذا التاريخ أثر على شعبها تأثيراً عظيماً. والكتالونيون ممتازون في أصلهم عن جميع سكان اسبانيا ويختلفون عنهم إلى هذا اليوم في وطنهم ولباسهم وأخلاقهم وفي سنة ٤٧٠ ب. م احتل الجوث تلك البلاد وسميت باسمهم جوثلانيا من ثم صارت كتالونيا وامتلكتها البرابرة في سنة ٧١٢ وهؤلاء طردتهم اسبانيا مع جيوش شارلمان. وفي سنة ١١٣٧ ضمت كتالونيا إلى مملكة الأراغون ولذا فالكتاليون هم شعب مختلط وطالما اشتهروا باقتصادهم وذكائهم المتوقد ونشاطهم وهم موصوفون بفخرهم بوطنهم ومعروفون بثوراتهم. ولغتهم وآدابها تختلف اختلافاً بيناً عن لغات ولايات اسبانيا الأخرى.

ومن أقدم آثار كتاب هذه اللغة أشعار بطلنا لل وكانت جزائر البليار دائماً في حوزة ولاية كتالونيا وملكاً لها نسبة لأهلها ولغتها وإذا ألقيت بنظرك في يوم صحو على هذه الجزر تراها أنها تبعد من مونسرات براً أو من برشلونا بحراً عن پالما نحو ١٤٠ ميلاً وبين هاتين المينتين حركة تجارية كبرى. ومساحة ماچوركا نحو ١٤٣٠ ميلاً وربعاً وطقسها معتدل ومناظرها بهجة وميناهها پالما فاخر جداً وجبالها الشمالية مرصفة ويفيض زيتونها وعنبها ولوزها في كل مكان وبالإجمال فهي كما وصفها بعض السواح الحاليين بأنها جنة أرضية.

وينقص الماء في أيام الصيف ولكنهم يتبعون الطرق التي خلفتها لهم العرب فيخزنون أمطار الخريف في أحواض معدة وتروي كل الأراضي.

أما پالما مسقط رأس بطلنا وموضع مدفنه إلى يومنا هذا فهي مدينة تختال بحسنها وشوارعها ضيقة تدل على أنها من صنيسة القرون الوسطى إذ هي على طراز البناء المغربي القديم إلا في الأماكن التي تزدهم فيها التجارية.

أما كنيسةتها الكبرى فهي في غاية من الجمال تحفها مهابة الجلال وقد احتفل بها وكرسها للعدراء الملك يعقوب في سنة ١٢٣٠ وهو الذي وهب والد لل عقار پالما ولا تزال بقايا ذلك البناء اليوم شاهدة على ما كانت عليه بالأمس ويرغبن الزائر أن يدخل في هذه الكنيسة المبنية سنة ١٢٣٢ ويرى أبنيتها المهدمة ويذكر لل الذي لا بد أن يكون قد نظر ذلك البناء مراراً إن لم يكن قد عبر فيه .

ولا يبعد أن پالما سميت بهذا الاسم بأمر ماتيلس بالريكس الذي أسكنها في سنة ١٢٣ م ثلاثمئة آلاف مستعمراً من الرومان والاسبان وغزواته يرمز إليها على العملة الرومانية بسعف نخل (Palm Branch) ومنها اتخذ الاسم پالما وقد دعا الارخبيل البلياري باسمه وخال أنه لا يخفى على القارئ أن المقالع البليارية مشهور أمرها في تاريخ يوليوس قيصر .

أما پالما اليوم فهي ميناء كثيرة الحركة تصدر تجارتها إلى فالنسيا وبرشلونه ومرسيليا وكوبا وبورتوريكو وبعض المواني الأمريكية ويبلغ سكانها الآن نحو ٦٠ ألفاً . وكانت في سالف

الأزمان مركزاً مهماً لصنع السفن ولا يبعد أنها كانت كذلك في أيام لل وقد شيّدوا رصيفاً في الجيل الرابع عشر يبلغ طوله ٣٧٨ باردة مما زادها بهاء وجمالاً.

فتلك المدينة الفيحاء كانت مسقط رأس لل ولا يزال سكانها لليوم يفتخرون به ويقودونك إلى كنيسة سان فرنسيسكو حيث دفن. وفي سنة ١٨٨٦ ب. م ظهرت طبعة جديدة من مصنفات لل.

أما اسم ريموند فالأرجح أنه مشتق من كلمة ألمانية ومعناها نقاوة اللسان.

ولا نعرف شيئاً يقيناً عن طفولية وشباب لل إلا أنه كان متعوداً على الرفاهية من نعومة أظفاره وكان لابويه مقاطعة كبيرة وكذلك كان أبوه ممتازاً باللقاب شريفة لخدماته الحربية.

تزوج لل مبكراً وإذ أحب مسرات الحياة حينئذ كثيراً ترك پالما وعبر مع عروسه إلى اسبانيا فجعله الملك يعقوب الثاني حاجباً لبلاطه فصرف ريعان شبابه في الملذات الدنيوية والشهوات العالمية وكانت حميته ونشاطه وكل مواهبه الطبيعية

ذاهبة هباءً منثوراً في تلك الملذات التي انغمس فيها بكليته وقد شهد عن نفسه قال إنه عاش عيشة في أقصى درجات الخلاعة والفسق إذ كان في ذلك الجيل الخمر والنساء والأغاني هي ملذات الملوك والأمراء. وعلاوة على زيجته وعطية الله له البنين كان لل في ذلك الوقت يسعى كل جهده في الحصول على الشهرة بملازمة السيدات في الحفلات وقد وقع في دسائس متوالية.

وكان الحاجب في ذلك الوقت رئيساً لبلاط الأمير أو الشريف التابع له سلطة تامة في الأعياد والمحافل وما كان أكثرها عدداً ورفاهية في بلاط يعقوب الثاني ملك الراجين الذي جلس على عرش الملك قبل فردناند وإيزابلا وكانت حكومته أكثر حرية من ممالك أوروبا بأجمعها وكان أذكيا وقضاة ذلك البلاط كلهم جمهوريون في أفكارهم.

وكانت الملوك تنتخب إلا أن السلطة الحقيقية كانت في يد (Cortes) وهي جمعية مؤلفة من الأشراف والفرسان ونواب الأمة والقسس. وقد تملك عشرون ملكاً من سنة ١٠٣٥ - ١٥١٦ ففي ذلك البلاط وفي وسط ذاك المجتمع صرف



للعدة سنين من حياته وقد كان شغوفاً بالموسيقى من صغره حاذقاً في اللعب على العود ماهراً جداً في الشعر حتى أنه لقب بالشاعر ولكن كان موضوع شعره غالباً العشق والهيام.

وقد اعترف بذلك فقال «اللهم اني أرى أن الشجر ينتج أزهاراً وأثماراً سنة بعد سنة كلا من نوعه لفائدة بني البشر ولكني أنا الشقي لست كذلك فأنا خاطئ ولم أثمر شيئاً مدة ثلاثين سنة بل بالعكس أفسدت الأرض وأضررت بأصدقائي وجيرانني.

فالشجرة التي لا عقل لها ولا ذهن تنتج أثماراً أكثر مني فلذلك اني أستحي من نفسي وأحسبها مستحقة لوماً عنيفاً».

وفي مكان آخر من كتابه يقدم شكره لله لأنه رأى الفرق العظيم بين أعماله من قبل ومن بعد فقال «كانت أعمالني شريرة وكنت أفرح بمعاشرة الخطاة» قلنا إنه كانت إلى لل مواهب ذهنية وغيره حقيقية وكانت له نفس شاعر إلا أن فطنته الحادة وذكاؤه المتوقد كادا أن يندثرا في حماة الملذات الشهوانية كبقية الشعراء الذين ليس للدين سلطان عليهم. إلا اننا نظلم لل إذا حكمنا على حياته في البلاط بحسب مقياس جيلنا المسيحي إذا كانت كل

ظروفه المحيطة به ظلمة دامسة فكان أحد أمراء ولائم وأعياد يعقوب الثاني قبل أن يصير فيلسوفاً مباشراً.

وكان له إلمام تام بأنواع القتال والفروسية فكتب في كتبه عدة مقالات عن هذه الفنون في اللغة الكتالانية تم ترجمت إلى اللاتينية ولا شك أنها كتبت مثل أكثر أشعاره قبل بلوغه سن الثلاثين فكان أفصح شاعر في جيله في مملكة اسبانيا وبلاغته وتأثير كلامه في الشعر الكتالاني يعلمها كل مطلع على تلك اللغة إلى اليوم فهناك طلاب علم الآداب الاسبانيولية يمدحونه ويقولون إنه المتقدم بين كل الشعراء الكتالانية.

وأهمية كتابات لل لغوية في الكتالانية وخصوصاً أشعاره قد ظهرت في كتاب عنوانه (لل واصل آداب اللغة الكتالانية) (انظر التذييل) ففي هذا الكتاب ترى بعضاً من أسفار لل وأمثاله. وقد وصف أحد مؤلفي دائرة المعارف البريطانية إحدى قصائد لل وموضوعها اليأس بأنها قد بلغت الحد الأقصى من البلاغة وسلاسة التعبير.

وان أشعاره العديدة التي كتبت غالباً قبل اهتدائه تبين

لنا انه كان غير مرتاح في قلبه عن حياته العالمية وغير راض عن عيشته العالمية.  
وقد نشبت معركة هائلة بين روحه وجسده إذ أن الملذات الشهوانية لا تقف عند حد  
وتخاصمت طبيعته السفلى والعليا الواحدة مع الثانية.

وقد رجع في الثانية والثلاثين من عمره إلى پالما وهناك (في مدينة مسقط رأسه ليس  
في البلاط الملوكي بل في كنيسة الفرنسيسكان) ولد ثانية أي اهتدى وتاب وعزم أن يترك كل  
شيء ويبشر ببر المسيح. رجع الابن الشاطر لنفسه وهو بين الخنازير وقد اتجهت أقدامه نحو  
بيت أبيه الذي إذ رآه من بعيد ركض ليقبله. واهتداء اغسطينيوس تحت شجرة التين في ميلان  
كان ما يماثلها وقتئذ في پالما برجوع لل إلى خالقه وفاديه.



«اسكب روحي على كل بشر... يرى شبابكم رؤى» (يوئيل ٢ : ٢٨)

«من ثم أيها الملك اغرباس لم أكن معانداً للرؤيا السماوية» (أعمال الرسل ٢٦ : ١٩)

«أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره كنت في الجزيرة التي تدعى بطمس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح. كنت في الروح في يوم الرب وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق» (رؤيا يوحنا ١ : ٩ و ١٠)

## الفصل الثالث

(رؤياه المسيح ودعوته لخدمته)

(١٢٦٦-١٢٦٧ م. ب.)

عند ما روى بولس الرسول قصة حياته للملك اغريباس كان مفتاح تلك القصة قوله «لم أكن معانداً للرؤيا السماوية» ظهر له الرب ورده دفعة واحدة من سيرته الأولى في اضطهاد الكنيسة وكل ما فعل أو كان عازماً على فعله قد انتهى. قام عن الأرض آخذاً حياة جديدة غير معاند الرؤيا.

تلك كانت رؤيا المسيح التي صيرت بولس اناء مختاراً ولم تكن المرة الأخيرة التي تمت فيها نبوة النبي يوثيل بل حتى في القرن العشرين لا نجسر أن ننكر إمكان الرؤيا السماوية ولو كنا غارقين في الفلسفة المادية.

فمسيحيو القرن الثالث عشر اعتقدوا بإمكانية الرؤيا ونظروا الرؤى. مع أن العادة أن عصر الرؤى تكون في نظر الجمهور

عصر وهمي إلا أننا لا نقدر أن نقول ذلك عن القرن الثالث عشر إذ كانت الرؤيا فيها مشمرة. فالرؤى التي رآها فرنسيس الاسيس والقديسة كترين وبطرس نولسكو وغيرهم من بقايا ذلك العصر كان لها أعظم تأثير في حياتهم وفي نفوذهم.

ربما نشك في حقيقة الرؤيا ولكننا بالتالي لا يمكننا أن نشك في نتيجتها في حياة أولئك الذين يعترفون أنهم رأوها. لك أن تدعوها خيالات دينية أو تصورات زهدية إذا أردت ولكن لا تنس أنها ولو كانت كذلك فلها قوة. وان هذه التصورات على قول أحدهم تأتي لنا كي نرى خدمة الملائكة المحيطين بنا وننظر المركبات النارية التي على الجبال حوالينا (٢ ملوك ٦: ١٧).

في ذلك الجيل الذي انتشر فيه عبادة مريم العذراء والملائكة وتقليد القديسين رأى لل رؤياه ولكنها لم تكن لأحد هؤلاء بل رأى المسيح نفسه وهاك الحكاية كما كتبها في حياته. جلس صاحب الترجمة في مساء أحد الأيام على ديوان في بيته ووضع عوده على ركبتيه وبدأ يؤلف أنشودة في مدح امرأة شريفة متزوجة كانت قد فتنت لبه وخلبت عقله ولم تكن تبالي

بحبه لها بل تعامله بالصد. بدأ بأغنيته الغرامية ولكنه رأى فجأة على يمينه صورة المخلص معلقاً على خشبة الصليب والدم يسيل من يديه وقدميه وحاجبيه. رآه محملاً فيه فزادت دقات قلبه للوثب على قدميه واقفاً ولم يقدر أن يكمل قصيدته فطرح عودة جانباً وتحرك ببطء إلى فراشه. وبعد ثمانية أيام أراد إتمام أغنية تلك المعشوقة ولكن حصل له كالسابق إذ ظهرت صورة الرب وهو في شكل رجل الأوجاع ونظرت إليه عينا المخلص المائت بألم وحزن ولسان حاله يقول:

انظروا كيف يده	سمرت فوق الخشب
وله اكليل شوك	ناب عن تاج الذهب
آه ما أقسى أياد	صنعت هذا العجب
انظروا كيف دماه	قطرت من جنبه
واسمعوا صوت أنين	صاعداً من قلبه
يا ترى ذاك لماذا	هل لكم علم به

فرمى للعودة ثانية وألقى بنفسه على الفراش فريسة لتوبيخ

ضميره إذ رأى أعلى وأعمق المحبة للخطاة فقال صارخاً.

وكيف أنسى حملاً قد مات عن ذنبي

واحتمل التعبير والا لام بالصلب

اذكر حبك الذي أظهرت يا ودود

اذكره ما دمت في الحياة والوجود

كان تأثر الرؤيا الأولى سريع الزوال فلم يكن مستعداً للتسليم والخضوع حتى أعادت نفسها. فلم يقدر حينئذ أن يعاند الرؤيا السماوية وعلم أنها رسالة خاصة لنفسه كي يتغلب على شهواته ويكرس نفسه كلياً لخدمة المسيح وقد شعر أنه نقشت على قلبه رؤية إنكار ذات المخلص لنفسه.

وأصبحت عنده رغبة واحدة هي عشق المسيح وخدمته ولكن سرعان ما دخله الشك وحدث نفسه قائلاً كيف يمكنني أنا المدنس بالردائل أن أحيا حياة نقية. وصرف عدة ليالٍ لازمه فيها الأرق وهاجمه اليأس والقنوط مراراً فبكى بكاء مريم المجدلية متذكراً خطاياها الجسيمة وأخيراً لاح له خاطر كالبرق وهو أن



المسيح وديع ومتواضع القلب يدعو إليه جميع الناس ولا يخرج أحداً خارجاً. وبهذا الخاطر نال التعزية المنشودة ولأنه غفر له كثيراً فأحبه أكثر وعزم على أن ينس العالم ويترك كل ما فيه لأجل خاطر المسيح.

هذه هي قصة اهتدائه بحسب ما كتبها في كتابه المسمى «الرؤيا الإلهية» الذي يجب أن يوضع جنباً لجنب كتب يوحنا بنيان مؤلف السياحة المسيحية وكتاب اعتراف اوغسطينيوس لأن تلك الكتب هي تراجم لنفوس مؤلفيها.

وبعد الرؤيا عزم على أن يكرس قواه لتوصيل بشارة الصليب إلى العرب. وكان اتجاه أفكاره لهذه الوجهة طبيعياً فكانت جزائر ماچوركا ومنبوركا حديثه الوقوع في أيدي العرب وقد امتشق والده حسام ملك الأرجوان أن ضد هؤلاء أعداء الوطن والإنجيل فلم لا يشحذ ابنه سيف الروح ضدهم؟

إذا كانت قد فشلت تلك الأسلحة المادية ولم تنتصر على أورشليم ألم يكن قد حان الوقت لأن يهتف في النفير معلناً حرباً صليبية روحية لاهداء العرب. تلك كانت الأفكار التي ملأت

دماغه ولكن قامت في وجهه صعوبة أي كيف يمكنه أن يقوم بالعمل وهو ليس قسيساً والكنيسة والاكليروس قد سادا في ذلك العصر. فترأى له أن يؤلف كتاباً يظهر فيه حق المسيحية ويقنع المسلمين بغلطتهم ويكون ذلك بدء عمله ولكن رجع فقال ولكنهم لا يفهمون الكتاب إلا إذا كتب بالعربية وهو يجهلها تماماً وكذلك قامت في وجهه صعوبات أخرى حتى كاد أن ييأس.

ملأت تلك الأفكار مخيلته فذهب يوماً ما إلى كنيسة مجاورة وسكب نفسه أمام الله طالباً منه أن يساعده على إخراج هذه الأفكار إلى حيز العمل ما دام هو الموحى بها إليه. وكان ذلك في شهر يوليو ومع أنه كانت قد انتهت رغباته الأولى وولت عيشته السالفة إلا أنه لم يصر بعد كل شيء له جديداً فلذا دامت معركة كبيرة بين عامل التقوى وعامل الشهوة لمدة أربعة أشهر.

وفي الرابع من أكتوبر كان عيد فرانسيس الاسيس فذهب للكنيسة الفرنسكانية في بالما وهناك سمع من شفاه

الواعظ الفصيح قصة (عروس الفقير) وعرف كيف أن ابن بطرس برناردو أنه كان في طليعة شجعان الحرب أخذ أسيراً إلى يردغيا وكان الموت منه كقاب قوسين أو أدنى وعرف كيف رأى رؤيا المسيح والعالم الآتي وكيف أنه لما نقه من مرضه الخطر استبدل كساء الفروسية بلباس الرهبنة زائراً المرضى خادماً البرص ومبشراً بالإنجيل كيف أنه في سنة ١٢١٩ وهو أمام أسوار دمياط عبر ذلك المرسل الراهب إلى المسلمين وشهد للمسيح أمام سلطان المسلمين منادياً بالتوبة قائلاً: «لم أرسل من إنسان بل من الله لكي أريك طريق الخلاص»

وقد أثارت كلمات الواعظ ما خمد من النيران المتأججة في قلب لل فعزم عزمًا نهائياً وباع ممتلكاته التي كانت ذات قيمة ثمينة وتصدق بالمال على الفقراء وأبقى جزءاً يسيراً يكفي لمعاش امرأته وأولاده وهاك نذر تكربسه نفسه قائلاً: -

«إليك أيها الرب الإله أقدم نفسي وامرأتي وأولادي وكل ما أملك وأتقدم إليك بخشوع بهذه التقدمة وليحسن في عينيك بأن تتنازل وتقبل كل ما أقدم لعزتك الإلهية بأن أكون

أنا وامراتي وأولادي خدمك المطيعين»

وكان هذا النذر عهد استسلام وخضوع تام ويظهر من تكرار الإشارة إلى امرأته وأولاده أنه قد نال الراحة المطلوبة فصارت عائلته في عهده. ودع بهذا النذر رفاقه القدماء وحياته الدنيوية وداعاً لا لقاء بعده. ولبس ثوب التنسك وزار كثيراً من الكنائس الموجودة في الجزيرة وطلب النعمة والمعونة في العمل الذي أخذه على عاتقه وقد سقطت الجبة الرسولية عن فرنسيس الاسيس الذي مات منذ أربعين سنة على لل وهو في الثلاثين من عمره.

وقد رضع لل أوامر الرهبنة القاسية في العصور الوسطى وسننهم وجرى على مثالهم في تنسكه وإنكار ذاته ويؤكد أغلب كتاب حياته أنه صار فرنسكانياً ولكن قولهم هذا مشكوك فيه إذ ان بعض هؤلاء الكتاب كانوا من هذه الطائفة فأرادوا طبعاً أن يكون لها الفخر بنسبته إليها ومما يبرهن أنه لم يصر فرنسسكانياً أن ايماريك الدومنيكي الكتالاني في سنة ١٣٣٤ (الذي كان مفتشاً لولاية الأرجوان)

بيّن أن لل كان تاجراً عامياً هو طوقياً وأظهر في سنة ١٣٧١ ٥٠٠ غلطة هرطوقية على زعمه في كتب لل وبذلك حكم غرغوري الحادي عشر بحرم كنائسي على كتبه وطرده الفرنسيون لل نفسه من بينهم إلا أن فرقة الجزويت كانت دائماً تجله وتحترمه فاحتارت الكنيسة الرومانية طويلاً هل تحرم لل كهروطقي أو تعتبره كقديس وشهيد؟ ولم يرسم لل أحد الباباوات إلا أن الكاثوليك الصالحين في اسبانيا وماچوركا اعتبروه قديساً فرنسيسكانياً. وقد وصلني مكتوب من أسقف ماچوركا الحالي يقول فيه عن ريموند لل أنه كان رجلاً فائقاً في صفاته جداً بفضائل رسولية مستحقاً لكل اعتبار.

وقال أحدهم عن اهتداء لل. نبعت ولادة لل الجديدة من شدة حبه للمسيح إذ لم يكن إيمانه وهمياً بل فعلياً حيويّاً وكان كاثوليكياً أكثر منه رومانياً كما أن الكتالونيين عارضوا مملكتهم وثاروا ضد ظلمها كذلك اشتهر بظلمهم بتجاسره الغريب بالابتعاد في أعماله عن ظلم الكنيسة وفي سعيه المتواصل في إعطاء العامة حقوقهم المهضومة. وتجد سر حياة لل الداخلية في حكاية

اهتدائه إذ غلب حب المسيح المصلوب الحب الشهواني وخضعت كل أشعار لل وغرامه للصليب. ورؤيا شبابه تفسر لنا قول شيخوخته «الذي لا يحب لا يعيش والذي يعيش بالحياة الحقيقية لن يموت».

وصورة المسيح المتألم بقيت خمسين سنة منبعاً لحياته لأن حبه للمسيح ملأ قلبه وصاغ عقله وأوحى إلى قلمه وجعل نفسه تشتاق إلى تاج الاستشهاد.

وبعد ذلك بسنوات عديدة لما طلب منه برهان قاطع ودليل ساطع على الثالوث الذي هو أعظم حجر عشرة للمسلمين استنجد بالرؤيا ثانية وكان برهانه على الثالوث «محبة الله في المسيح كما أعلنها لنا الروح القدس».



---

تعليم الإسلام إما أن يكون بدعة فيكون مرفوضاً عند المسيحيين وإما أن يكون من  
الوثنية فيكون خارجاً عن المسيحية وعلى كلتا الحالتين يجب علينا أن نقاومه كتابة وعملاً...  
أواجهكم ليس كما فعلتم أنتم سابقاً بالسيف بل بالحجة لا بالقوة بل بالبرهان لا  
بالغضب بل بالمحبة

قول بطرس فترابلس الشيخ (مات سنة ١١٥٧)

## الفصل الرابع

برهن لل بعزمه الثابت على أن يصوب هجماته على قوة الإسلام بأسلحة المسيحية كأنه اثناسيوس الجيل الثالث عشر. وليست المسألة الإسلامية في بزوغ القرن العشرين بأعظم منها في تلك الأيام.

لم يكن الإسلام طبعاً منتشراً كالآن ولكنه كان قوياً جداً وكثير التأثير لأن دين الإسلام في ذلك الوقت أكثر اتحاداً منه الآن. وقد شعر المسلمون في ذلك الوقت أن الحروب الصليبية كانت شر هزيمة للمسيحيين وكان نصف اسبانيا تحت حكم الإسلام وكانت سلطة العرب باسطة أجنحتها على شمالي إفريقيا واعتنق الإسلام كثير من المسيحيين في البلقان. وفي مصر كان أكثر أبناء الأمة القبطية ترك دين آبائهم وتعتنق دين المماليك الحاكمين في ذلك الوقت وانتشر أيضاً الإسلام في ذلك الحين بين المغوليين. وفي الهند كان المبشرون بالإسلام يبشرونه بين



أهاليها وأول ما سمع عن النبي في أرخبيل مالاي كان في سنة ولادة لل وفي ذلك العهد تربع  
بيبرس الأول أول وأعظم السلاطين من المماليك على عرش مصر وكان زكياً نشيطاً غير متزعزع  
في دينه وقد استعمل كل وسيلة ليوسع نطاق الإسلام ويقويه. وكان الإسلام قوباً مهاباً وكانت  
بلاده منبع الفلسفة والعلوم وقد ترجمت فلسفة ارسطوطاليس من اللاتينية إلى العربية في بدء  
الجيل الثالث عشر وفاق روجر باكون والبرتوس ماغنوس في العلوم حتى اتهمهما الاكليروس  
باتحادهما مع العرب.

فتلك كانت حالة العالم الإسلامي التي تجاسر لل أن يهاجمها بأسلحة المسيحية الجديدة  
وهي المحبة والعلم بدلاً من أسلحة الصليبيين التعصب والسيوف. فالمسيحيون في القرن الثالث  
عشر ما كانوا يحبون المسلمين بل ولم يفهموا دينهم وقد كتب ماركو بولو الرحالة أحد معاصري  
لل عن ذلك قال «لا تتعجبوا من كراهة العرب للمسيحيين إذ ان الشريعة التي تركها لهم نبيهم  
تأمرهم بعمل كل ما تصل إليه أيديهم من الضرر لكل ما سواهم من الأمم وخصوصاً المسيحيين  
فانه أمرهم بنهب أموالهم ومعاملتهم

بكل أنواع السوء وهذه هي أعمال العرب في العالم إلى اليوم» وكذلك وصف دانتي الشاعر المشهور نبي العرب والأمة الإسلامية بأشنع الأوصاف وحذا حذوه كل من وصف الإسلام في ذلك الجيل. وأول من كتب كتاباً عن الإسلام في اللاتينية هو الانوس دي انسوليس الذي عاش من (سنة ١١١٤ - ١٢٠٠) وموضوع كتابه يبين جهله التام بالإسلام فوضع المسلمين في مصاف اليهود الوثنيين والولدنسيين!! وقال كلار أن جنوب أوروبا كانت تجهل كل شيء عن الإسلام حتى لم يعرفوا في أي وقت ولد محمد وكتب هلدبرت رئيس أساقفة تور شعراً عن محمد قال فيه أنه مرتد عن الكنيسة المسيحية!!!

أما بطرس فتراپلس الذي وضعنا كلماته تاجاً لهذا الفصل فكان أول من ترجم القرآن وأول من درس الإسلام درساً حقيقياً بالمحبة وقد طلب أن تترجم بعض أجزاء الكتاب المقدس إلى لغة العرب وأثبت أن في القرآن نفسه أسلحة يمكن بها مهاجمة قلعة الإسلام ولكنه بكل أسف قال «أما أنا فلا وقت عندي كي ادخل في هذا الميدان» وقد بين أولاً الغث من السمين في

تعاليم محمد وقد أشار إلى العقائد الوثنية والمسيحية في الإسلام وقد مسك بالقلم قاصداً أن يدخل ميدان المباحثات وكتب ليس بالسيف بل بالقلم ليس بالقوة بل بالبرهان ليس بالبغض بل بالمحبة وبذلك كان هو أول من عرف روح التبشير الحقيقية التي يجب أن نبشر بها العرب اليوم. ولكنه لم يخرج إليهم.

أما ذلك البطل الاسبانيولي لل شعر بأنه يجب عليه أن يحمل دعوته ويخرج ليس بالقوة بل بالبرهان ليس بالغضب بل بالمحبة.

وقال لل إنني أرى أبطالاً كثيرين يذهبون إلى الأرض المقدسة في ما وراء البحار ظانين أنهم يمكنهم امتلاكها بقوة السيف ولكنهم فنيوا قبل أن ينالوا ما أرادوا فلذا يتراءى لي أنه لا يجب أن نسعى إلى الغلبة على الأرض المقدسة إلا بالطريقة التي اتبعتها أنت يا يسوع ورسلك الكرام التي هي المحبة والصلاة وسكب الدموع وسفك الدماء في احتمال المشقات.

وكان لل في أتم الاستعداد لكي يسكب نفسه سكباً على

المذبح. وقد بقيت معه الرؤيا السابقة الذكر ولازمته في كل حين محبته لله التي جعلته يظهر محبته للناس. ولم يكن في شك أن الله قد اختاره ليبيشر العرب ويربهم للمسيح إلا أنه تمهل كي يختار أحسن طريقة يمكنه السير فيها. نظر إلى تاريخ أمته وإلى المعارك القائمة على قدم وساق في اسبانيا وشعر بعظم المسؤولية التي سيلقيها على عاتقه. شعر ذلك القائد أنه لا يمكنه أن يجازف بدخوله في ميدان القتال قبل أن يتسلح وشعر ابن ذلك الجندي الذي حارب المغاربة حروباً دموية كثيرة ان العرب أحق بالمقاومة. عرف ذلك الحاجب المتنور أن المدارس العربية الموجودة في كردوفا كانت مركز التعليم الأوروبي ولم يكن من السهل عليه أن يقنع عربياً بالحق كما ينقع أوروبياً.

وقد فكر لل في الذهاب إلى باريس وهناك يدرس بكل جد واجتهاد ليدير نفسه على مجادلة المسلمين إذ كانت في باريس في الجيل الثالث عشر أشهر جامعة مسيحية. وأسس روبرت دي سربون تحت إدارة القس لويس في سنة ١٢٥٣ كلية لاهوتية ابتدائية وقد سميت أخيراً جامعة سربون وصار لها من الشهرة ما لروما.

ولكن تبعاً لنصيحة قريبه الدومينكي المسمى ريموند دي بنافرت عدل صاحبنا عن رأيه وعزم أن يبقى في ماچوركا ويتم دروسه ويكمل معداته سراً وعزم أولاً أن يلم باللغة العربية ولم يكن من السهل له أن يجد معلماً في ماچوركا لأنها كانت قد خرجت من نير العرب قبل ذلك ببضع سنين وكذلك لم يكن لمسلم غيور على دينه أن يرضى بتعليم لغة القرآن لشخص صرح أن غرضه هو الحملة على الإسلام بأسلحة الفلسفة. فاشترى عبداً عالماً باللغة العربية ومكث معه تسع سنوات يتلقن اللغة فهلاً يوضح ذلك ان لل بغيرته ولو على طريق مثل هذا كان أعظم وأول مبشر للمسلمين. ومن ذا الذي يصرف تسع سنوات في الاستعداد للعمل الآن؟.

وبعد هذه المدة الطويلة التي قضاها لل في التعليم بنجاح باهر مع عبده العربي أوقفت درسه حادثة أليمة. كان لل قد تعلم لغة المسلم ولكن لم يكن ذلك المسلم قد تعلم محبة المسيح كما لم يكن يعرفها تلميذه بالتمام ففي إبان درسه جدف العربي على المسيح ولا يعلم كيف أو بماذا جدف ولكن لا يخفى على كل عامل بين

المسلمين فظاعة الألفاظ التي يوجهونها لابن العلي فلما سمع لل التجديف صفع عبده علي وجهه بشدة وحماس في إبان ثورة غضبه فبأسرع من لمحة البصر سل العبد سيفه وجرح لل جرحاً بليغاً قاصداً إهلاكه فأمسك والقي في السجن. وقد خاف العربي قصاص تعمده قتل هذا السيد فانتحر داخل سجنه فكان ذلك أمراً محزناً في بدء استعداد لل للعمل وهنا شعر لل أنه لم يعرف كيف يصبر صبر المسيح من ثم عرف أن من «لا يحب لن يعيش» وقد عادت له رؤيا الرأس المكلفة بالشوك ولم يمكنه أن ينسى عهده.

فانعزل ثمانية أيام في الجبل شاغلاً نفسه بالصلوات والاعتكاف ولم يتردد برهة في عزمه بل ثبت فيه أكثر من الأول وكانت حالته إذ ذاك كحالة هنري مارتن حيث جعل معلمه حياته حملاً ثقيلاً عليه. وهكذا كان اختبار لل مع عبده أعظم مدرسة للإيمان والصبر.

وعلاوة على درس لل العربية اشتغل أيضاً في تلك السنوات التسع بالتخشعات والاعتكافات الروحية أو بما يسميه البعض التصوف.

وبينما هو في تلك الحالة طراً على مخيلته أن يؤلف كتاباً يحتوي على جميع العقائد المسيحية بعبارة شديدة المبني فصيحة المعنى حتى يقر المسلمون ببلاغة منطقتها وبالتالي يعتنقون دين الحق وربما كان قد أوماً إليه بهذا الفكر نسيبه ريموند دي بنافرت وهذا الرجل كان قد ألزم توماس اكنياس أن يؤلف كتاباً في أربعة مجلدات موضوعه الإيمان الكاثوليكي أو حجتنا على الأمم.

وكتب لل كتاب «برهان عقائد الإيمان» وأشار في مقدمته إلى الوقت الذي فكر فيه في وضع كتاب مجادلة للمسلمين وفيها يسأل القسس وعقلاء الأمة أن يفحصوا حججه وبراهينه ضد العرب ومدح المعتقدات المسيحية وطلب بإلحاح أن يخبروه بالبراهين الغير قوية قبل أن يصدر الكتاب.

وملكت عقله هذه الفكرة حتى اعتبرها صادرة من الوحي الإلهي فوضع الكتاب وسماه «العلم الأكبر والعام».

وكان يظن أن تلك الطريقة المنطقية والفلسفة العامة هي سلاح الله ضد كل غلطة وخصوصاً أغلاط المسلمين.

كان لل في ذلك الوقت في الحادية والأربعين من عمره

وقد نضجت قواه العقلية فسافر إلى موضع بقرب پالما حيث جاءت الفكرة أولاً وبقي هناك أربعة أشهر يؤلف الكتاب ويصلي بحرارة مستمداً البركة الإلهية على براهينه وحججه.

ويقال إن لل في تلك المدة كان يلاقي راعياً خفياً وربما كان ذلك إشارة إلى الراعي العظيم وإلى اختبارات لل الروحية وهو ناء عن الأهل والخلان في موضع منفرد بقرب پالما وقد أتم كتابه هذا في سنة ١٢٧٥ وقابل ملك ماچوركا مقابلة خصوصية طبع بعدها كتابه الأول على طريقته الجديدة تحت رعايته ولم يكتف بطلنا بذلك بل ألقى على جمهور الناس محاضرات عن كتابه. وكان هذا الكتاب المهم من الوجهة الواحدة خصيصاً لأجل إقناع المسلمين ومن الوجهة الأخرى كان عاماً ويقصد به جمع كل علوم عصره في دائرة معارف وان يلغي طرق الذين سبقوه التي لم تكن لتفي بالغرض المقصود وسيأتي الكلام عن طريقة لل في فصل خاص.

في ذلك العصر كانت التلامذة تكثر من التناقش في العلوم وكان الفلسفة وهمية لا اختبارية ففكر لل في استعمال سلاح



ذلك العصر المهم وهو المنطق العلمي في خدمة الإنجيل وفي ربح العرب للمسيح فإن قلنا عنه أنه كان فيلسوفاً كان بالحري مرسلًا. غيرته النارية رفعت شأن فلسفته لأجل انتشار الإنجيل ولأجل محبته التي تنقي كل الأدران في لهبها العظيم.

ربما تبتسم سخرية على منطق للعلمي وعلى دوائره وجداوله التي كان يبحث بها عن الطرق المختلفة التي تنسب بها المقولات للأشياء ولكن بالتالي لا يمكن لشخص إلا أن يحترم الروح التي أوحى إليه بتلك الطريقة.

وقد جرى لل في ذلك شوطاً بعيداً وفاق كل آراء أهل زمانه في تأكيده بوجود تقديم البراهين في الدين وفي سعيه المتواصل لأجل أن تقدم للوثنية مسيحية سديدة الحجج.

وفي فحصنا لمزايا طريقة لل والمدة الطولية التي صرفها في استعداده يجب أن لا ننسى أمراً وهو أن قوة الإسلام في ذلك العصر أيضاً كانت الفلسفة. وحيث درس روح الفلسفة العربية درساً تاماً وعرف أغلاطها لم يبق عليه إلا أن يواجه فلسفة العرب في أرضهم وكانت كتب ابن سينا والغزالي وابن رشد متربعة على

---

عرش العلم الإسلامي وعلى قمة أفكارهم فعزم لل أن يهدم أولاً سلطة تلك الفلسفة ومن ثم يصل إلى قلب المسلم برسالة الخلاص.

فكان سلاحه خير سلاح لمثل تلك المعركة ولمثل ذلك العصر.



«أعشق شخصاً واحداً هو المسيح»

(زنزندورف المبشر)

مثل اشتياق أيلٍ لجدول المياه  
نفسي إليك هكذا تشتاق يا الله

قد عطشت نفسي إلى إلهي الأكبر  
متى أجيء ولدى ربي العلي أظهر  
(المزمور)

## الفصل الخامس

(في مونتبلر وباريس وروما)

(١٢٧٥ - ١٢٩٨)

كانت حياة لل تنقسم لثلاثة أمور (١) إقناع الأمم الغير مسيحية بالحق المسيحي (٢) تأسيسه جامعات للمرسلين (٣) ذهابه بنفسه لتبشير المسلمين وختمه شهادته بالاستشهاد.

إذا تتبعنا قصة لل في السنين التي قضاها في الخدمة نرى فيها أبلغ ذكرى وأحسن عبرة. وقد لخص لل حياته لما كان في الستين في قوله «كانت لي امرأة وأولاد وكنت غنياً وعشت عيشة دنيوية ولكني حرمت نفسي من كل هذه الأشياء بسرور ورضى لأجل الخير العام ونشر الإيمان المقدس في أنحاء العالم. تعلمت العربية. وقضيت أوقاتاً كثيرة بعيداً عن بلادي مبشراً بالإنجيل للعرب ولأجل خاطر الإيمان طرحت في السجن واحتملت العذاب أشكلاً وألواناً وقد تعبت خمس وأربعين سنة لأربح رعاة الكنيسة وأمراء أوروبا لخير المسيحية العام. واني الآن طاعن في السن

وفقير ولكني لا أزال على عزمي الأول وسأستمر فيه إن شاء الله حتى أسلم نفسي الأخير» وان الجملة الموضوع تحتها خط هي موضوع هذا الفصل. ومساعي لل كانت لتأسيس مدارس للمرسلين ولإقناع الباباوات والأمراء بأن الصليبية الحقيقية يجب أن تكون بالقلم وليس بالسيف وكان فكره هذا حسناً جداً إلا أنه كان غريباً جداً في أعين ذلك الجيل.

وقد امتلك هذا الفكر المكان الثاني من قلبه تاركاً المكان الأول لمشروعاته الفلسفية وكان هذان الرأيان مبنيين الواحد على الآخر وغرضهما معا التبشير.

وما أتم كتابه هذا وألقى المحاضرات الفلسفية لأجله حتى بدأ بإقناع الملك يعقوب الثاني الذي كان قد سمع بغيره لل كي يؤسس دير رهبنة في ماچوركا يتعلم فيه الرهبان الفرنسيون اللغة العربية ويتدربون على المباحثات والتبشير بين المسلمين وقد رحب الملك بهذا الرأي وفتح الدير المذكور في سنة ١٢٧٦ وابتدأ ثلاثة عشر راهباً في تلقن دروس لل ورضع روحه ولم يقصد أن تكون تلك المدرسة عبارة عن مدرسة لاهوتية أو

فلسفية بل كان جل تعليمه عن كيفية تبشير الحقول الأجنبية وكان تعليمه هناك أحسن بكثير من مدارس لاهوتية عديدة في جيلنا هذا فقد احتوى التعليم على جغرافية الارساليات ولغة العرب. وكتب فقال علم البلدان ضروري جداً لتأسيس جمهورية المؤمنين ولرد جماعة الكافرين ولمقاومة الملحدين وأضداد المسيح. والذي ليس له إمام بعلم الجغرافيا يجهل أين يسير وأين يعمل فإذا سعى في إهداء الكفرة أو أراد عمل أمر ما لصالح الكنيسة فلا بد له من معرفة أديان العالم وأحوال الأمم.

وهل وصل أحد من معاصريه إلى هذه الدرجة؟

شعر بطل إفريقيا الذي عاش قبل لفرنجستون بستمائة سنة ما كتبه الأخير بأكثر اختصار ولكن بنفس المعنى.

وهو «نهاية أعمال الجغرافية بداية أعمال التبشير» ويختلف الكتاب فيما إذا كانت هذه المدرسة التبشيرية قد فتحت تحت رعاية الملك في پالما أو في مونتبلر والحقيقة أنه في سنة ١٢٩٧ وصل لل جوابات من مونتبلر من رئيس الفرنسيسكيين يمدحه فيها مدحاً مستطاباً ويصفه فيه بأنه فاق كل

بيوتات الفرنسيين ومن ذلك يظهر أنه ارتبط بالأخوة هناك قبل ذلك بزمن

مونتبلر اليوم مدينة ذو أهمية معروفة وهي واقعة في جنوب فرنسا بقرب خليج ليون وقد ابتداءً تاريخ نجاحها من القرن الثاني عشر وفي سنة ١٢٠٤ ألحقت بأملاك بيت الأرجوان بواسطة ارتباط العائلتين بالزواج وبقيت كذلك حتى سنة ١٣٥٠.

التأمت عدة مجالس كنائسية هناك في غضون الجيل الثالث عشر وفي سنة ١٢٩٢ أسس فيها البابا نيقولا الرابع بإشارة للجامعة اشتهرت بعملها الطبي في القرون الوسطى وكان من ضمن عمدتها (مجلس إدارتها) بعض اليهود الذين تعلموا في المدارس المغربية في اسبانيا.

صرف لل هناك ثلاث سنوات في التعليم والتعلم وهناك صنف مؤلفاته الطبية وبعض كتب غرضها الحث على تأسيس مدرسة تبشيرية وقد كتب هذه الكلمات التي تضطرم غيرة «اللهم اني لا أجد أحداً مستعداً للاستشهاد محبة فيك كما فعلت أنت محبة فينا ويلوح لي كما يرتاح إليه العقل أنه يجب أن

تسن شريعة للقسس تلزمهم بتعلم اللغات المختلفة حتى يتمكنوا من الذهاب لتضحية أنفسهم محبة فيك... متى يكون ذلك اليوم المبارك يا رب المجد الذي فيه أرى كهنتك القديسين يتأثرون بغيرة ويمجدونك بذهابهم إلى بلاد أجنبية ليشهدوا بخدمتهم المقدسة وبتجسدك المبارك وبآلامك الشديدة يكون ذلك اليوم مجيداً يوم تتجدد فيه حرارة التخشح التي بها واجه رسلك الكرام الموت فرحين لأجل يسوع المسيح».

كانت نفس لل في مزيد الاشتياق ليرى يوم خمسين جديد ونهضة للتبشير العمومي للعالم بأجمعه فكانت مونتبلر صغيرة لأن تكون حقلاً له مع أنه كان عالمياً (ليس قسيساً) وهذه هي رغبته في ألفاظه «استمالة رعاة الكنيسة وأمراء أوروبا» ليصيروا غيورين مثله. فأين له أن يركز بقدمه ويهتف في بوقه كي يصل إلى ذلك الغرض إلا في مركز المسيحية.

احتفلت الباباوات بالحروب الصليبية ورفعت شأنها وامسكوا بمفاتيح كلتا القوتين الروحية والجسدية وكان حكمهم في القرون الوسطى كصوت من السماء ومعروفهم كندی البركة



ولقد أمل لل من نجاحه مع ملك الأرجوان أن رئيس رعاة المسيحية ربما يجد فكره في صواب. فذهب إلى روما في سنة ١٢٨٦ مؤملاً أن ينال من هونوريوس الرابع الرضا عن كتابه والمساعدة في تأسيس المدارس التبشيرية في أنحاء أوروبا المختلفة. وكان هونوريوس هذا مدة رياسته للكهنوت القصيرة غيوراً محباً للعلوم وطهر الولايات الباباوية من عصابات اللصوص وسعى رغبة في العلوم في تأسيس مدرسة للغات الشرقية في باريس ولو لم تعجل المنية بخطفه لنال لل ما تمنى إذ مات في الثالث عشر من ابريل سنة ١٢٨٧

وصل لل لروما فوجد الكرسي الباباوي خالياً والناس أجمعهم منهمكون في شيء واحد وهو اختيار خلفه فانتظر عله يجد فرصة ولكن لسوء حظه وقفت في سبيله عشرات كبيرة فقابل الكثيرون آراءه بالهزاء والسخرية وقليل منهم من شجعه إذ كانت الكرادلة مهتمة بطمعهم أكثر من تبشير العالم وجلس أخيراً على العرش الباباوي نيقولا الرابع وكانت أخلاقه رديئة

جداً حتى أننا لا نعجب إذا عرفنا أن لل يئس وعدل عن الزامه أن يكون مرسلًا. كان ذلك البابا بدون أمانة وبغير شرف. وقد اعتقد بلزوم محاربة العرب بالسيف فقط وسعى سعياً متواصلًا ليجهز حرباً صليبية أخرى ولكنه عبثاً سعى. ولم يسع لل بعد ذلك في مقابلة بابا ثانية إلا بعد عشر سنوات.

ولما يئس لل من وجوده في روما حول وجهته إلى باريس وهناك ألقى محاضرة في الجامعة عن كتابه وألف كتباً أخرى عن علوم مختلفة ولكنه كان فوق كل ذلك يجهز نفسه للمجادلات ولنشر آرائه عن الغلبة على العالم. ونراه في أحد كتبه يصلي بحرارة قائلاً:

«يجب أن يؤسس جماعة القسس الأتقياء العقلاء دوراً للتعليم لكي يتعلموا اللغات المختلفة ولكي يمكنهم تبشير الغير المؤمنين ولكن لم يكن قد آن الوقت».

وأخيراً بعد أن مل من طلب المساعدة لأجل آرائه التي لم يشجعه فيها أحد عزم على أن يجرب قوة المثال ومع أنه كان في الخامسة والستين عزم أن يسافر بلا معين ويبشر بالمسيح في ساحل إفريقيا الشمالي وسيكون الكلام إن شاء المولى عن هذه

السفرة التبشيرية الأولى في الفصل الآتي.

وعند رجوعه من تونس سنة ١٢٩٢ ذهب لل إلى نابلس وهناك تعرف برجل شريف ورع يدعى ارنولد ومنه تشرب لل الروح التي كانت على ارنولد في ذم الكنيسة لاعتقادها بأن الصدقات أفضل من الخدمة الدينية وقد صرح ارنولد أن القسس قد أفسدوا تعاليم المسيح وان لا منفعة البتة من القداسات وان الباباوية هي من أفكار الإنسان. فحكموا بمنع كتابه كما حكم على كتب لل من ذي قبل. وربما كان هذان الأخوان في تعليمهما انجيليين حقيقيين وكانت صداقتهما متينة.

وبعد ذلك بسنوات قلائل غير لل مرسح أعماله فذهب أولاً إلى باريس وأعاد تعاليمه هناك وصنف كتباً أخرى وفي سنة ١٢٩٨ فاز بتأسيس كلية في باريس يعلم فيها طريقتة تحت حماية الملك لويس فيليب غير أن فرنسا بأسرها في ذلك العهد كانت في هياج لسبب الحرب ضد فرسان هيكل سليمان وضد البابا بونيفس الثامن فلم يكن لهم فراغ لدرس فلسفة لل ولا رغبة في أن يصيروا مبشرين للعرب.



The Harbor of Bugia, North Africa

ميناء بوجه في شمال إفريقيا حيث رجم ريموند لل في ٣٠ يوليو سنة ١٣١٥

فاتجهت أفكاره لل مرة أخرى لروما ولكن والسفاه كانت روما في الجيل الثالث عشر آخر موضع تجد فيه تضحية الذات أو روح التبشير وفي سنة ١٢٧٤ نصح البابا كلمند الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨) أن يحاربوا الإسلام بقوة السيف.

وكانت الباباوات تصرح أن الحروب الصليبية هي عين التبشير وزار لل روما للمرة الثانية ما بين ١٢٩٤ و١٢٩٦ وسمع باختيار سلسنتين الخامس بابا لروما وأمل لبعض أسباب أن هذا البابا يصغى لدعواه وكان سلسنتين هذا قاسياً وأسس هيئة للفرير وكان أيضاً غيوراً على الإيمان وقد انتخب في الخامس عشر من يوليو سنة ١٢٩٤ ولكنه ألزم أن يستقيل في ٣ ديسمبر في نفس السنة لمناسبة المكائد والدسائس التي دبرها خلفه البابا بونيفاس الثامن وقد سجنه هذا البابا العاتي فمات بعد ذلك بسنتين وكان بونيفس هذا جسوراً طماعاً متغطرساً وكان مصدر مطامعه نفسه فكل المشروعات التي عملها كانت لتعظيم نفسه فلم يجد لل اخلاصاً أو مساعدة هناك.

ومن سنة ١٢٩٩ - ١٣٠٦ سافر لل سفرته الثانية إلى شمالي

إفريقيا وبشر وعلم في بلدان مختلفة كما سنرى بعد قليل.

وفي سنة ١٣١٠ سعى بطلنا العالم مرة أخرى وكان إذ ذاك في الخامسة والسبعين من عمره ليؤثر في قلب المسيحية ويلزم البابا بأن يجعل الكنيسة صادقة لدعوتها العظمى.

كان لل غير قادر أن يتم تلك الآراء الكبيرة عن الغلبة الروحية التي أذابت قلبه غير أنه كان ممتلاً حمية وغيره فأراد أن يؤلف فصيلة من الأبطال الروحيين يكونون في أتم الاستعداد لتبشير العرب وبذا ينال قبر المسيح بحرب صليبية حبية وقد تبرع الرجال والسيدات الأتقياء في جنوه لهذا الغرض بنحو ثلاثين ألف جلد (الجلد ثمانية غروش) وقد تشجع لل كثيراً بهذا العمل وسافر إلى أفيجون ليقدم مشروعه إلى البابا كلمند الخامس وكان هو أول بابا اختار أفيجون مركزاً لإقامته وبذا سميت الأسر البابلي الباباوي وقد وصفه معاصروه من الكتاب بأن كان متهوراً متحيزاً لأقاربه متاجراً بالرتب الكهنوتية محباً لحشد المال ولا غرابة إذا قلنا إن لل قرع على باب نائب المسيح عبثاً إذا كان مثل ذلك الرجل هو القابض على مفاتيح السلطة.

فرجع لل مرة أخرى لباريس قوي العقل ضعيف البنية وهناك دحض فلسفة ابن رشد العربية وكتب كتاباً يدافع فيه عن الإيمان وعن تعليم الوحي .

وسمع وهو في باريس أن مؤتمراً عاماً سينعقد في فيينا في السادس عشر من اكتوبر سنة ١٣١١ التي تبعد نحو ٣٠٠ ميل عن فرنسا فقال في نفسه أن مجلساً عاماً كهذا ربما يصغى لما لم يتنازل الباباوات بملاحظته فرجع إلى تلك السفرة الطويلة التي كان قد قطعها منذ حين .

وقد حضر ثلثمئة أسقف معاً ودار البحث في المجلس عن منازلة الهرطوقيين وأبطال فصيلة فرسان هيكل سليمان وعمل حروب صليبية جديدة وعن قانونية البابا بونيفس الثامن ولكن قبل المجلس اقتراحاً واحداً من اقتراحات لل وأمر بأن تدرس اللغات الشرقية في جامعات باريس وسلامنكا واكسفورد وفي كل جامعة أخرى تحت حكم البابا .

وها قد عاش بطلنا حتى رأى جزءاً من آراءه التي صرف معظم حياته مفكر فيها قد أتت

بشمر .

ويقدر أن يحصر نتائج للتبشير من تأسيس مدارس اللغات الشرقية الأولى في جامعات أوروبا على يد لى حتى إلى أيام المبشر مارتن وايون كيث فالكونر أستاذ اللغات العربية في جامعة كمبرج.

لقد جاهد لى لأجل هذا الرأي العظيم أو استعداد المبشرين في المدارس جهاداً حسناً منفرداً بدون معين من وقت رجوليته إلى شيخوخته حتى وقف على عتبة النجاح وقد سبق ليولاً ووزدرف ودف في اتحاد المدارس وعمل التبشير. وناز محبته لأجل هذا الغرض ساوت غيرتهم إن لم تكن قد زادت عنها.

وإلى يومنا هذا كل مستشقي أوروبا وكتابتهم مديونة للمستتر لى لأجل ذلك لأن الفضل للمتقدم.

أو كما يقول المثل العربي الفضل للمبتدئ وان أحسن المقتدي.





---

راية الإيمان ترفع والنفير صاح  
والحسام الحق يلمع والنجاح لاح  
حربنا العظمى تشب كاللظى الشديد  
إنما الفادي المحب قائد مجيد  
نعمة الرب العظيمة ضعفنا تعين  
كيف نخشى من هزيمه نصرنا مبين

(الشاعر)

## الفصل السادس

### سفرته التبشيرية الأولى إلى تونس

(١٢٩١ - ١٢٩٢)

فشل لل في زيارته الأولى لروما فعاد على أعقابه إلى باريس وصرف هناك مدة قصيرة كما رأينا ومن ثم عزم أن يسافر كمرسل حقيقي لنشر الإيمان بين المسلمين وكان في ذلك الوقت في السادسة والخمسين من عمره وكان السفر في تلك الأيام شاقاً سواء كان براً أو بحراً. وفي نفس السنة التي سافر فيها لل جاءت إلى أوروبا أخبار سقوط عكا وانتهاء السلطة المسيحية في بلاد الشام وكانت كل إفريقيا الشمالية في يد العرب فتأهوا عجباً لأسرهم عكا وازدادوا تعصباً باضطهادهم المغاربة في اسبانيا فلهذه الأسباب كان لل جسوراً جداً لتجاسره على السفر لتبشيرهم ولكنه لم يحسب نفسه عزيزة في هذا المشروع وكان مستعداً أن يخاطر بكل شيء له مؤملاً أن ينجح في عمله بواسطة إقناعهم بالمحبة أو على الأقل كما قال «أن يعقد مؤتمراً مع عقلائهم ويعلن

لهم بطريقته الخاصة الابن المتجسد والأقانيم الثلاثة أي أن الثالوث الأقدس جوهر واحد».

أراد لى أن يعقد مجلس مناظرة للأديان وأن يقابل التوحيد الإسلامي مع إعلان الآب والابن والروح القدس في الإنجيل فسافر لى من باريس إلى جنوه وكانت إذ ذاك منافسه في البندقية على السيادة البحرية في البحر المتوسط وكانت جنوه في أعلى درجات الرخا. ولا تزال أبنية ذلك الزمان الفاخرة تشهد بمهارة صناعها وبغنى تجارها ولم تكن حياة لى معروفة لدى أهالي جنوه فسمعوا حكاية اهتدائه باندهاش وعلموا أنه شرع في طريق جديد لإهداء المسلمين وعلموا أنه على جناح السفر منفرداً إلى شواطئ إفريقيا فبنوا قصوراً عالية من الآمال وكانت إحدى السفن على وشك الرحيل إلى إفريقيا فاستلم لى جواز السفر وذهب إلى الميناء وأخذ معه كتبه وكان كل شيء في تمام الاستعداد للسفر وللمجازفة بحياته ولكن في تلك اللحظة تغير حاله إذ غمره الخوف عندما فكر فيما يصيبه في تلك البلاد الراحل إليها إذ ربما يعذب أو يسجن طول حياته

فاهتز لذلك الفكر كريشة في مهب الريح طائفة لا تستقر على حال من القلق ولا يدهشنا هذا الرد فعل بعد أن ترك باريس وجاء إلى هنا بإيمان قوي ففي حياة المرسلين ترى أشياء كثيرة مثل هذه. فهناك هنري مارتن كتب عن اختباره قال عندما اختفت من أمام نظره شواطئ انجلترا «ليتنى ارجع إذ يخونني جلدي ولقد عرفت بالاختبار اني ضعيف كالماء. أعزائي في انكلترا لما تكلمنا بافتخار عن الإرساليات للوثنيين أخطأنا الظن ولم نعلم حقيقة الآلام التي بها يتم العمل».

فكان على لى أن يواجه مستقبلاً أعقد من ذنب الضب كان مستقبله أظلم من مستقبل ظهره. مارتن فخانه جلده ووهي إيمانه وارجع كتبه ثانية إلى الشاطئ واقلع المركب ولى ليس على

وصلت اخبار سارة عن المركب فويخه ضميره كثيراً ولم تتمكن محبته للمسيح أن يتحمل الفكر أنه خان نفس الأمر الذي دعاه له الله وتأكد أنه بعمله هذا جعل للمزدرين بدين المسيح فرصة أعظم للاستهزاء به تعالى وبإنجيله واشتد به

الحنن والندم حتى أصابته حمى خبيثة كادت أن تؤدي بحياته. وقد سمع وهو بعد في إبان مرضه وانزعاج أفكاره أن سفينة في الميناء على وشك السفر إلى تونس فسأل أصحابه مع شدة ضعفه أن ينقلوا له كتبه إلى السفينة ويسمحوا له بالسفر فأصاخوا له أولاً لشدة إلحاحه ولكنهم أقنعوه وهو على ظهر المركب أنه لا يعيش إلى نهاية السفرة وألحوا عليه كثيراً بل وأصروا برجوعه فرجع ثانية وطرح على فراشه ولكنه لم يجد راحة ولم ينل شفاء إذ أضعفته أفكاره فتذلل لل كيونان النبي وصرخ مع بولس قائلاً: «ويل لي إن لم أكرز» وإذا كانت سفينة أخرى على أهبة السفر عزم عزمًا تاماً أن يسافر بها. ومن يطالع هذه السيرة إلى آخرها يرى أن لل صدق في قوله أنه من تلك الدقيقة صار إنساناً جديداً فوضعه أصدقاؤه في السفينة ولم تحتجب هذه عن الأبصار حتى تركته الحمى وسكت ضميره عن توبيخه لجبنه وشعر لأول وهلة بالراحة التامة جسماً وعقلاً ورجعت له شجاعة الجندي الذي يحارب بسيف الروح لأجل ملكوت المسيح وشعر بما قيل:

ها المسيح الرب قادم      فاحفظوا الحصون  
لا تخافوا من مهاجم      ظالم      خؤون  
ان أعداء الصلاح      جيشها      أسود  
فعلیکم بالسلاح      أيها      الجنود

وجاء لل إلى تونس في أواخر سنة ١٢٩١ أو في أوائل سنة ١٢٩٢ ولا يصعب علينا أن ندرك لماذا اختار لل تونس وفضلها عن مراكز العالم الإسلامي الأخرى ليبدأ فيها بهجومه على قلعة الإسلام. كانت بلدة تونس عاصمة بلاد تونس بقرب قرطاجنة واشتهر أمرها لما انتصر العرب على سواحل إفريقيا الشمالية فسموها بهذا الاسم من الأصل ونس.

وكانت تونس الميناء العمومية التي كان يسافر منها الراحلون من قروان (وهي شمالي إفريقيا) إلى اسبانيا.

في سنة ١٢٣٦ تغلبت عليها الدولة الحفصية وجعلها زكربا عاصمة لدولته ولما سقطت بغداد سنة ١٢١٨ لم تقم مدينة غيرها عاصمة للعالم الإسلامي فأخذ أمراء الدولة الحفصية لقب أمير

المؤمنين ووسعوا تخوم ملكهم من تلمسان إلى طرابلس وسادت مهابة أمراء تونس في كل البلاد الإسلامية حتى في مصر ومكة وكانوا أقوياء جداً.

وأمام تونس انهزمت الحرب الصليبية الثالثة فتونس هذه كانت مركزاً للعالم الإسلامي في الجيل الثالث عشر ففي ذلك الموضع حيث انهزم فيه لويس مع جيشه العرمرم عزم لل أن يعمل حرباً صليبية روحية منفرداً.

تونس واقعة على برزخ بين بحيرتين مالحتين ومتصلة بميناء جولاته لقتال قديم وهناك ترى بنائين كبيرين من زمان لل أحدهما هو جامع أبو زكريا في القلعة والثاني جامع شجرة الزيتون الكبيرة في وسط المدينة. وأطلال قرطاجنة مركز المشيخة اللاتينية قديماً لا يبعد إلا بضعة أميال عن غولاته وكانت تونس في ذلك العهد أكبر بكثير منها في هذه الأيام إذ يبلغ تعداد سكانها اليوم نحو ١٢٥٠٠٠ نفس.

ولا بد أن يكون لل قد أرسى في غولاته ثم ذهب إلى تونس وكانت خطوته الأولى أن يدعو الأميين لمؤتمر كما فعل

زيجنبالج في جنوب الهند ويوحنا ولسون في بمباي وأعلن انه قد درس الحجج درساً تاماً وهو في تمام الاستعداد لأن يقارن بين براهين المسيحية والإسلام. وصرح أنه لو أقنعوه بخطأه يعتنق الإسلام جهاراً فرحب علماء الإسلام بدعوته وأتوا إلى مؤتمره أفواجاً لكي يقنعوه بمعجزة القرآن ويبرهنوا له التوحيد وبعد مباحثة طويلة بدون جدوى تقدم لل إلى نقطتين حقيقتين في التوحيد الإسلامي وهما المحبة الأزلية في الله وعدم العدل بين صفاته فقال «كل ذي عقل سليم يعرف أن الدين القويم هو الذي ينسب الكمال التام إلى الله تعالى. ليس الذي ينسب له تعالى الصلاح والقوة والحكمة والجبروت فقط بل الذي يظهر فيه العدل والمساواة بين تلك الصفات. وان دينهم قدر فقط حق القدر صفتين من صفات الله وهما إرادته وحكمته فترك صلاح التقدير وعظمته بلا فائدة كان لا عمل أزلي لهما وأما الديانة المسيحية فليس فيها هذا النقص بل تبين لنا أن الإله العظيم هو الآب والابن والروح القدس جوهر واحد. ففي تجسد الابن يتضح لنا العدل بين صلاح الله وعظمته. وفي شخص المسيح يظهر



الاتحاد الحقيقي بين الخالق والمخلوق وفي محبته العظمى التي أظهرها للإنسان يبين العدل الإلهي والصلاح المتناهي واتضاع ذلك الذي لأجلنا نحن الخطاة ولأجل خلاصنا ولأجل إرجاعنا لحالتنا الأولى حالة الكمال احتمال تلك الآلام وعاش ومات لأجل الإنسان».

وأسلوب هذا البرهان مهما قيل عنه فهو صحيح بل هو جوهر الإنجيل. بكم سنة كان هذا قبل الإصلاح؟

ويتعجب الإنسان كثيراً عندما يرى أن كتابات لل لم يكن فيها إلا القليل من لاهوت القرون الوسطى أو من آراء الكاثوليك القديمة ولو أن التبشير بالصليب حجر عثرة للمسلمين في كل زمان لم يكن لل في مباحثاته يرضى مطلقاً ببعض الحق بل كان يبشر بالإنجيل الكامل وقد برهن ذلك بما حدث له كما سنرى.

قبل البعض الإيمان نتيجة تبشيره وازداد الآخرون تعصباً فبين إمام من هؤلاء الآخرين للسلطان الخطر العظيم المحقق بالأمة الإسلامية إذا سمح لمثل هذا المعلم الغيور أن يبين صريحاً

أغلاط الإسلام وطلب أن يسجن لل ويقتل فطرح السلطان لل في سجن مظلم وكان في العزم قتله إلا أن القدير دبر له أحد العلماء الذي مدح مقدر لل الذهنية وذكر له أن المسلم إذا تشبه بلل في تكريس نفسه وفي غيرته الدينية يحترم احتراماً كبيراً وان منظر رجل مسيحي عالم مسن فيلسوف يقاوم القرآن جهاراً في وسط تونس لهو أعظم مثال للشجاعة الأدبية في القرون المظلمة.

وقال الدكتور سمث عن ذلك «لم يكن لل صليبياً يهمله المجد الفاني أو المسرات العالمية بل بشر بالمسيح لقوم يحكمون على المرتد بالموت وجعل المسيحيين يشعرون بصولتهم عدة أجيال» وذلك ما جعل أعداؤه يندهبون من جسارة تكريس نفسه.

فبعد أن حكم عليه بالموت أبدل ذلك القصاص بالنفي من المدينة وكان يخلق بلل أن يفرح لخلاصه لأنهم كانوا يناظرون المسيحيين بقسوة بربرية إلا أن لل لم يرد الخضوع لأوامر النفي وبذا يترك قطيعه الصغير الذي اهتدى على يديه من غير قائد أو معلم.

وكانت السفينة التي أقلته إلى تونس على أهبة العودة فادخلوه

فيها رغماً عنه وأندروه بأنه إذا رجع مرة أخرى للمدينة لا بد من رجمه.

أما لل فشعر مع بولس أنه لا يجب أن يطيع القوم في تهديدهم بأن لا يكلم أحداً من الناس فيما بعد بهذا الاسم وعرف أن جنبه الأول في جنوه لا بد له من تكفير فأراد أن يهرب من السفينة بحيلة ويرجع إلى ميناء غلاطية مزدرباً بذلك المنشور.

تم ما أراد وخبياً هذا المرسل الغيور نفسه لمدة ثلاثة أشهر شاهداً بسيدته في كل مكان فتلك كانت مزايا حزاقة لل ومن المدهش أنه ألف كتاباً علمياً في ذلك الوقت أيضاً ولكن حيث كان يستحيل عليه طبعاً الاستمرار على خطته التبشيرية الجهارية سافر بحراً إلى نابلس وبقي هناك عدة سنين يعلم ويلقي المحاضرات على طريقته الخاصة وبعد ذلك كما رأينا سابقاً زار روما مرة أخرى.

ويتضح من كتابات لل ومن كتابات من كتبوا عنه أن تبشيريه للمسلمين لم يكن جدلياً فقط بل كان كذلك تفسيرياً فكان يتكلم دواماً عن فلسفتهم وعلمهم باحترام وان مواضيع

كتاباتة الجدلية تبين حسن ذوقه ومحبته الفائقة في طريقتة التبشيرية فكان الضعف فيه فقط أنه كان يقدم الفلسفة على الوحي ويجرب أن يشرح ما كان يلزم أن يبقى دائماً سر الإيمان ويجب أن لا ننسى أنه كلاهوتي لم يدرس أبداً على مشاهير رجال عصره بل كان معلم نفسه وقد امتزج علمه بمحبته .

لم يذهب لل إلى نابلس لأنه عدل عن الحرب بل بالحري ذهب ليصقل أسلحته وليجمع جنداً ويذهب للبابا فيتسلح لحرب صليبية روحية ضد ألد أعداء مملكة المسيح . ولما ذهبت مساعيه سدى كما رأينا في الفصول السابقة سافر سفرات تبشيرية أخرى وفي سنة ١٣٠٧ كان على شواطئ إفريقيا مرة ثانية بعد نفيه الأول بخمسة عشر سنة



«كان هو رسول المحبة والأمانة في عصر كله عسف وخيانة» (جورج سمث)

«ولكن كنت محترصاً أن أبشر هكذا ليس حيث سمي المسيح لئلا ابني على أساس آخر».  
(بولس)

## الفصل السابع

### في أسفار وأخطار

(١٣٠٩ - ١٣٠١)

سافر لل سفرات تبشيرية عديدة (من سنة ١٣٠١ إلى سنة ١٣٠٩) يجب أن نقدرها حق قدرها إذا علمنا أنه كان في السادسة والستين من العمر وإذا تأملنا في مشقات الأسفار في البر والبحر في القرون الوسطى علمنا أن البحر المتوسط كان محاصراً باللصوص وفيه كان يحارب الكتالنيون البابزنطيين وكذلك كانت الحرب في أشدها بين جنوه والبندقية لأجل المنافسة في التجارة.

وكان فرسان سان جون يحاربون لأجل رودس وكانت الباباوات في نزاع والخلاصة أن السفر بحراً كان خطراً وبراً كان شاقاً. ولم يكن السفر في العربيات مسموحاً في القرون الوسطى وبقيت الحال كذلك حتى الجيل السادس عشر حيث سمح للناس بالركوب فيها وحتى إلى ذلك الحين لم يسمح إلا

للسيدات اللواتي من الطبقة العليا. وكان جميع الرجال ذوي الحرف والصنائع يركبون الخيل والبغال. وفي بعض الأحيان كان الرهبان والسيدات يركبون الحمير وكانت الغابات مملوءة باللصوص وكانت حيوانات البرية لا تزال تزحف الناس.

ورغمًا عن هذه العثرات عزم لل أن يسافر من مكان لآخر مبشراً كلما سنحت له الفرص وكان غرضه توصيل البشري لليهود والهراطقة من المسيحيين كما للعرب. وبعد أن مكث مدة مع اليهود في ماچوركا اقلع إلى قبرص ونزل في فاماچوستا التي كانت ميناء كبيرة وحصناً منيعاً في تلك الأيام.

وكان في قبرص في ذاك الوقت سكان كثيرون من اليهود والمسلمين والمسيحيين ولكن لل ترك الجزيرة حالاً وعبر إلى بلاد الشام مع رفيق له وتوغل في أرمينيا مجاهداً أن يدعو الطوائف المختلفة الشرقية إلى إيمان الكنيسة.

وكانت أرمينيا في الجيل الثالث عشر ولاية صغيرة في شمالي صقليا ترأسها أسرة وطنية فاتحدت في قبرص وعملوا آخر حصن للمسيحية ضد الإسلام في الشرق وخوفاً من غارة القوات

الإسلامية عملت أرمينيا معاهدة مع المغوليين الذين غزوا آسيا.

فبين تلك البقية الباقية من الشجاعة وداخل حصن ذلك الإيمان المتين وهم إلى يومنا هذا يقاومون بدمائهم روح الإسلام العدوانية اشتغل لل ما ينوف عن السنة وهناك في أرمينيا كتب كتابه المسمى «الأشياء التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها عن الله» كتبه في اللاتينية ثم ترجمت بعد ذلك إلى الاسبانيولية. ورجع لل مرة أخرى من قبرص إلى إيطاليا وفرنسا من سنة ١٣٠٢ - ١٣٠٥ سائحاً متجولاً يخطب في الجامعات ويؤلف الكتب وقبل أن نتكلم عن سفرته الثانية إلى شمالي إفريقيا يجب أن نقول كلمتين عن محبته الفائقة وتعبه لأجل اليهود المنبوذين من الناس في عصره.

كان اليهود متشتتين في أنحاء ممالك أوروبا ولهم قوة عظيمة وسلطة فائقة بسبب علومهم وغناهم وقد تمتعوا في اسبانيا تحت سلطة العرب بامتيازات كثيرة ولكن بالنسبة إلى طرد المغاربة واشتداد المسيحيين تعذبوا كثيراً. وقد قامت في سنة ١١٠٨ فئة كبيرة ضدهم في مدينة توليدو فغاصت الطرق والساحات بدمائهم.



ولقد امتلأ تاريخ الجيلين الثاني عشر والثالث عشر بالخرافات عن عداوة اليهود المرعبة فقبيل انهم سمموا الآبار وسرقوا الرفائع وثقبوها بالابر وصلبوا الأطفال في عيد فصحهم وأخذوا أحشاءهم لعمل السحر.

وفي سنة ١٢٥٣ نفي اليهود من فرنسا وفي سنة ١٢٩٠ نفوا من انجلترا وقتل كثيرون منهم ولم يجسر أحد من المسيحيين أن يدافع عنهم. لم يفقد طفل إلا وكان يذاع أن اليهود اختطفوه وقد اجتهد عبثاً بعض القسس الأتقياء أن يعارضوا هذا التعصب الرائع والتهم الباطلة عن تلك الأمة المنبوذة. وكان الاعتقاد السائر في ذلك العصر أن اليهود والمسلمين كفره يستحقون كل غضب واحتقار وكانت كراهة المسيحيين لليهود في اسبانيا أكثر من أي بلاد أخرى وقبل انطفاء حياة لل اتقدت نار الكراهة والاضطهادات حتى فنيت تلك الأمة من تلك المملكة.

وفي الجيل الثالث عشر في كل البلاد تقريباً كان اليهود ملزمين بلبس علامة سخرية تسمى برنيطة اليهود وهي صفراء على شكل هرم تغطي الرأس وبوضع شريط أحمر على صدورهم

وبالسكنى معاً في حي خاص يدعى حي اليهود وكان ذلك الحي غالباً محاطاً بسور.

ولكن تلك الأمة المحتقرة لم تخرج عن دائرة محبة لل فكتب لهم كتباً عديدة مثبتاً لهم حق الإنجيل وبين لهم أن المسيا المنتظر لم يكن إلا يسوع الناصري. وعمل لل في إفريقيا لم يكن لينسيه لزوم التبشير في وطنه. وفي سنة ١٣٠٥ أو ربما قبل ذلك اجتهد أن يقنع اليهود في ماچوركا مسقط رأسه بخطئهم. ففي عصر لم ينتظر اليهود من المسيحيين إلا العسف والظلم كان لل رسول المحبة لهم أيضاً

ولنأتي الآن إلى سياحته لشمال إفريقيا التي أقلع إليها في سنة ١٣٠٧ من إحدى مواني فرنسا أو من جنوة ولم يذهب هذه المرة إلى تونس بل إلى بوجيا ويقول البعض إنه زار أيضاً بلاد الجزائر.

ويلد لنا أن نعرف شيئاً عن بوجيا إذ هناك بشر لل المسلمين في شيخوخته وهناك مثلت مأساة حياته. بوجيا ميناء محصنة في الجزائر بين رأس كربون ووادي ساحل وأهم مبانيها الآن

الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية والمستشفى والمعسكر وقلعة عبد القادر القديمة التي تستعمل الآن كسجن وسكانها الحاليون قليلون غير أنها تصدر شيئاً كثيراً من الشمع والحنطة والبرتقال والزيت والنبيد وبوجيا مدينة كثيرة الآثار وبنائها أولاً القرطاجون وأحاطوها بسور وصارت في الجيل الثالث عشر عاصمة للتجارة في كل شمال إفريقيا تحت سلطان سلاطين بني حماد وبني التجار الطليان كثيراً من المباني الفاخرة هناك منها الجمرك وحمامات وكنائس من ثم صارت بوجيا في الجيل الخامس عشر مرسى للصوص وفقدت بعد ذلك عزها وأهميتها.

وكان يوجد بعض التجار المسيحيين في المدينة إلا أنهم كانوا قليلي العدد وكانوا يسعون في طلب الحرية التجارية وفي معاملتهم بالمعروف فلذا كان عليهم أن يتجنبوا كل المجادلات الدينية ويخبئوا سراجهم تحت مكيال ويمكن لنا أن نعرف من تاريخ أسرات الممالك التي حكمت مصر في ذلك العهد كيف كان يعامل العرب المسيحيين إذ أعيد منشور عمر الثاني الفظيع وانفذت قوانينه الصارمة

والسلطان المملوك الناصر الذي كان جباراً حسوداً قاسياً طماعاً وحشياً مد سلطته على بوجيا وتونس من سنة ١٣٠٨ - ١٣٢٠ وكان متعصباً كما كان قاسياً وعلى القارئ فقط أن يعيد نظرة على التاريخ فيرى كيف أخرج الكنائس وأحرق المسيحيين وقطعهم أرباً وكيف بدد أموالهم فيعرف حالة المملكة الحقيقية في أيامه وما إن وطأت قدما لل أرض بوجيا حتى ذهب إلى السوق العام ووقف بجسارة وشجاعة متناهية وصرح باللغة العربية الفصحى أن المسيحية هي الإيمان الوحيد الحقيقي وأظهر رغبته في أن يبرهن على ذلك ببرهان حقيقي لمن يريد ولا نعرف ماذا كان برهانه إلا أنه اختص بمحمد النبي فبعثت حجته هيجاناً هائلاً ورفعت أياد كثيرة للإيقاع به فأنقذه المفتي من أيديهم وعاتبه سراً على هذا الجنون لرميه بنفسه في وسط تلك المخاطر ونعم ما فعل.

فأجاب لل باسماء «ليس للموت شوكة على عبد المسيح المخلص الذي يتعب لكي يربح نفوساً للحق» وبعد ذلك طلب المفتي (الذي لا بد أن كان راسخ القدم في الفلسفة العربية) من

لل أن يقدم براهينه على تفوق دين المسيح على دين محمد.

قدم لل براهينه بثبات جأش وكان واحد منها عن الوصايا العشرة شريعة الله الكاملة وأثبت لهم من كتبهم كيف أن محمداً نقض جميع هذه الوصايا الإلهية وقدم لذلك برهاناً قوياً آخر بأن ذكر لهم السبعة فضائل والسبعة رذائل وبين لهم أن الإسلام كان عارياً من الأولى غارقاً في الثانية.

إذا كانت مثل هذه الحجج يجب أن تستعمل باحتراس حتى في الجيل العشرين فما بالك بتأثيرها في المسلمين في شمالي إفريقيا في أيام القدم.

ما طرأت هذه الكلمات على آذانهم حتى اضطهدوه اضطهاداً عنيفاً وألقوه في سجن مظلم وبقي هناك سجيناً نصف سنة فيها صاحبه بعض تجار جنوة واسبانيا الذين أشفقوا على ذلك الشيخ المدافع عن إيمانهم الحي وفي الوقت نفسه عرض المسلمون على ذلك الفيلسوف المسيحي الغنى والحرريات والمقام العالي والسلطة إن هو أنكر دينه واعتنق الإسلام فكان جواب لل من أعماق هادئة على ذلك الإغراء الباطل أنتم تقدمون إلي

الزوجات وكل أنواع الملاذ العالمية الفانية على شرط قبولي دين محمد فوأسفاه إنكم تقدمون مكافئة زهيدة إذ إن كل ما لكم في العالم لا يمكنه شراء المجد الأبدي واني بالعكس أعدكم إذا تركتم شريعتكم التي انتشرت بالسيف والقوة فقط وقبلتم معتقدي ان تنالوا الحياة الأبدية لأن الإيمان المسيحي انتشر بالتبشير ودم الشهداء القديسين ولذا فإني أنصحكم أن تصيروا مسيحيين الآن فتنالون مجداً أبدياً وتنجون من عذاب الهاوية الأبدية.

فمثل تلك الكلمات الخارجة من شفاه رجل في الثالثة والسبعين باللغة العربية الفصحى عالماً في فلسفتهم العربية التي لفظها وعيناه تومض ببريق الغيرة والمحبة لا بد أن جاءت من المعونة الإلهية. وقد اقترح لل وهو في سجنه على هؤلاء العرب أن كل فريق يكتب دفاعاً عن إيمانه وبينما كان هو مشتغلاً بإتمام ذلك الفعل صدر أمر من حاكم بوجيا بنفيه ثانية.

ولا نعلم إذا ما كان ذلك الأمر قد صدر نتيجة لتبشير لل أم لا ولكننا نعلم فقط أن كثيرين من علماء المسلمين زاروه وألحوا عليه أن يرتد وعرضوا عليه مدة سجنه كل تجارب الإسلام الدينوية.

ولا بد أن تلك كانت تجربة عظيمة لمرسلنا الشيخ إذ ذكرته بخطاياها الشبابية وبرؤيته عند بدء رجوليته فكان لسان حاله:

بينما هم عذبوني	كنت لي أنت المعين
فملاذي أنت ربي	ومعاذي كل حين
ويطرف لي خفي	قد أشرت لي احتمل
مثلما أنت لأجلي	كل صعب تحتمل
فرضاك اليوم عني	وابتساماً منك يغني
وأميناً قلت إني	أيها الراعي الأمين

وقد ترك ريموند بوجيا محروساً بالجند إذ خاف المسلمون أن يعيد ما عمله في تونس. وفي أثناء السفارة بقرب إيطاليا هبت زوبعة كادت السفينة تنكسر منها وهناك أنقذ من أسرته وقابله كل من سمع بشهرته وفلسفته بكل تجلّة وإكرام ومن هناك ذهب إلى جنوه ثم إلى باريس وقد ذكرنا آنفاً ما عمله هناك في مجلس فينا.

«كان لللاهوتياً قانونياً وكيمائياً ماهراً وبحاراً حاذقاً ومبشراً ناجحاً». (تاريخ همبولت)

«لعمل كتب كثيرة لا نهاية والدرس الكثير تعب للجسد». (الجامعة)



## الفصل الثامن

### فيلسوف ومؤلف

يصعب علينا أن نجمل في فصل مختصر كهذا كتب لل فلسفية التي حيرت نوابغ أوروبا جيلين متواليين بعد موته أو أن نذكر بعض مصنفاة العديدة ولا نعرف أيا نقدر في لل أكثر. أكثر مؤلفاته أم مهارته فيها.

كان ريموند من أيام شبابه إماماً للغة الكتالانية وكتب كتباً كثيرة فيها قبل اهتدائه.

ولا يوجد جدول كامل يبين كل مؤلفاته فيها غير أن البعض قد ذهبوا إلى أنه قد ألف أربعة آلاف رسالة وفي أول فهرست ظهر لكتبه في سن ١٧٢١ ذكر له ٢٨٢ كتاباً وان خمسة وأربعين منها طبعت فجاءت في عشرة مجلدات ضخمة وللقارئ أن يراجع فهرست كتبه الذي وضعناه بأخر الكتاب فيرى ذكاه المفرط متجسماً.

كان لل فيلسوفاً وشاعراً وروائياً وكاتب أمثال ومنطقياً

ولاهوتياً وفوق الكل مباحثاً مدققاً وبالجملة لم يصل إليه علمٌ إلا وعرفه وأحسنه. وقد قال المؤرخ المشهور ونسر إن لل كتب في سنة ١٢٩٥ كتباً في الجغرافيا لم يصدر أحسن منها إلا بعد كولمبوس وبيزن الدكتور سمث أن لل هو مخترع البوصلة المارتيرية وقد أشار في كتبه العربية مرات عديدة عن الإبرة المغنطيسية.

وكتب نبذاً مختلفة عن العناصر وعن أشكالها وعن حاسة الشم وعلم الفلك وعلم التنجيم والحساب والهندسة وتربيع وتثليث الدائرة وعن الأدوية وعن الطب الشرعي والطب العقلي.

وكتب أيضاً سبعة مجلدات عن الطب وعن فائدة العقل في شفاء الأمراض وعن تأثير المناخ فيها وكان أيضاً لاهوتياً كبيراً وكتب ثلاثة وستين رسالة عن المباحثات الدينية اللاهوتية وكان بعضها عويصاً جداً حتى يشك القارئ فيما إذا كان الكاتب دكتوراً في التهذيب كما لقبه بعض معاصريه. وقد كان يعنون كتبه اللاهوتية بأسماء تستلفت الأنظار فمنها «أثلث الثالوث الأقدس» «هيئة الله» «لغة الملائكة» الخ.

---

وألف ٦٢ كتاباً عن الاعتكاف والتكريس نراها في فهرس مصنفاته ولم يكتب في واحد منها عن القديسين إلا في ستة منها تكلم عن مريم العذراء وهذا برهان قوي على أن لل كان إنجيلياً أكثر منه رومانياً وأنه أحب المسيح فوق كل القديسين المذكورين في النتيجة الباباوية.

وخصص أحد كتبه الصوفية للمسلمين وجعل موضوعه «أسماء الله الحسنى».

وجمع لل أو كتب ثلاثة كتب في الأمثال كان في أحدها ما ينوف عن الستة آلاف مثل في لغة وطنه الدارجة وهاك بعض درر من تلك الآلى.

أحب الرب حتى تخاف منه.

السلام اشتراك عام بدون تعب.

الله أعطانا مثلاً لتوحيده في طبيعة الكائنات.

الشجاعة الحقيقية هي جسارة القلب على مقاومة الشر.

الغنى الحقيقي هو التسليم التام للإرادة الإلهية.

لأن البارى لا ينسى شيئاً مطلقاً فدائرة أفكاره غير محدودة.

وصنف لل عشرين كتاباً عن المنطق وعن العقل وكان موضوع كتاب من كتبه الأخيرة «عظمة وحقارة الإنسان» ولم يوجد بين مواضيعه وكتبه غير كتاب واحد تفسيري. وكان ذلك التفسير لمقدمة إنجيل يوحنا!!!

ولم تكن نهاية لعمل كتب بحثية في أيام لل وكان الفرق بين ما كتبه لل وبين ما كتبه معاصروه ان هؤلاء كتبوا ضد الهرطقة لإدانتهم بالهلاك الأبدي وذاك كتب لإهدائهم إلى طريق الحق. وكانت روح التكريس التام والتواضع تظهر من خلال سطور قلمه ومن فلسفته الطبيعية التي كان أغلبها عن العالم الآتي وأمجاده وقد ختم أحد كتبه بهذا الدعاء العجيب.

«اللهم مصدر معونتي لا يمكن لعبدك أن يذهب لبلاد العرب ليمجد اسمك القدوس قبل أن يتم هذا الكتاب فإن كل وقتي ذاهب فيه وإذ قد عزمت أن أجعله لمجد اسمك فلذلك لا يمكنني أن أفكر في شيء آخر غيره ولهذا أسألك أن تساعدني بنعمتك كي أكمله حالاً واذهب سريعاً حيث أموت موت الشهداء محبة فيك إذا أرادت مشيئتك أن أكون أهلاً لذلك».

وفي سنة ١٢٩٦ أتم مؤلفاً عن منطق المسيحية بدأه بهذه الأغنية «ليعتبر المسيحيون الملتهبون بغيرة المحبة لأجل الإيمان أن لا شيء يمكنه أن يقاوم الحق الذي يعلو على كل أمر فلذلك يمكنهم بمساعدة الرب وبقوته أن يرجعوا الكفرة إلى الإيمان حتى يعلن اسم المسيح العزيز الذي لا يزال مجهولاً لأمم كثيرة فيعبده الجميع».

وقال أيضاً «حيث قد انتهى كتابي عن صوم يوحنا المعمدان المبشر بالنور الذي أشار إلى النور الحقيقي فلتكن مسرة العلي بأن يشعل نوراً جديداً في العالم كي يضيء لغير المؤمنين ويهديهم سواء السبيل حتى يقابلوا معنا في اليوم الأخير يسوع المسيح الذي له كل مجد وإكرام إلى أبد الأبدين».

ولا يظن القارئ أن هذه فصاحة بيان أو شقشقة لسان إنما هذا صراخ نفسه العطشى لمجيء الملكوت.

كان لل مؤلفاً مقتدراً ولم يكتب في اللغة اللاتينية الفصحى فقط بل في لغة وطنه الدارجة أيضاً وقد دعاه نوبل «مودي القرن الثالث» وكان تأثيره الديني في اسبانيا عظيماً جداً

بواسطة أغانيه وأمثاله وما كتبه من أصول الإيمان في اللغة الكتالانية.

وقد قابله أحدهم بلوثر وقال إنه مصلح قبل الإصلاح وقد خدم اللاهوت خدمة عظيمة إذ وضع أركانه الأساسية في قصائد حتى يمكن للعامة أن تستظهر غيباً ملخص الإيمان المسيحي وبها يمكنهم مقابلة اليهود والمسلمين بحجج معدة. وكان إذ ذاك اللاهوت قاصراً على الاكليروس فقط فنشره رجلنا بين العامة أيضاً. وأما من جهة طريقتة الفلسفية الخاصة فإنها لا تجدي نفعاً في هذه الأيام إذ قد اضمحلت فلسفة القرون الوسطى أما من يريد أن يطالع عليها فلا بأس من أن يراها في تاريخ الفلسفة أو يرى ملخصها في النسخة الانكليزية لهذا الكتاب. ولا شيء يبين لنا مهارة لل فائقة وذكائه الحاد كروايته الدينية وهي أحسن رواية رمزية في العصور الوسطى وهو قد سبق يوحنا بنيان في هذا الميدان بل لا مشاحة إن قلنا أنه أول من كتب رواية دينية باللغة الدارجة في أوروبا. لا بد أن يكون لل قد قرأ روايات عديدة عن أبطال ذلك العهد قبل اهتدائه فلذلك كان طبيعياً أن

يكتب رواية عن حربه الصليبية موضوعها المحبة للعرب. وقد جاءت روايته هذه في أربعة مجلدات وهاك عنوانها «بلانكارنا أو مرآة لأخلاق كل درجات الهيئة الاجتماعية وعن طقوس الزواج والدين والأساقفة والباباوية والتنسك».

والحكاية عن حاج يدعي الناسي وهو بطل تزوج الما وهي ابنة أرملة غنية وأراد ابنهما الوحيد المدعو بلانكارنا أن يصير راهباً إلا أن وقع في حب كاعب هيفاء تقيية تدعي دوناً عزم كل منهما أن يصير زاهداً فدخلا ديرين مختلفين وتكلم عن اختبارات الحاج والراهب والراهبة كل في وسطه وقيل عن الحاج.

«نرى الحاج يسافر بعيداً في أراض قاصية مع انك اللهم قريب لكل إنسان ويمكنه أن يجدك في بيته بل وفي مخدعه وكثيراً ما يخدع الحاج رجال أشرار يقابلونه في الحانات فيرجع وقد أفسدت أخلاقه عن ذي قبل».

ودونا الراهبة خاصمت أخواتها الراهبات ونازعتهن على سلطة الكاهن على الضمائر وعلى عقائد كنائسية أخرى

ولممثلي الرواية أسماء رمزية. ذهب بلانكارنا إلى روما فوجد عند البابا مازحاً يدعى ريموند المغفل (الذي يمثل بطلنا بنفسه) وهو لا يفتر يقول الحق للكرادلة. وهاك أسماء الكرادلة الأربعة «عبد الشكور» «عبد الملك السماوي» «عبد المجيد» «عبد القدوس».

ويقول في تلك الرواية أن بلانكارنا أخيراً على عرش الباباوية فاستعمل سلطته في إرسال جيش عرمرم من الرهبان لإهداء اليهود والمسلمين.

وقد رصع روايته بأغاني الحمد والشكر ولم ينس في فصل من الفصول مسألة التبشير.

ويجب أن لا تترك في زاوية النسيان مثل هذه الرواية البليغة وبعض كتبه الأخرى.

وهاك مشهذان من مشاهد الرواية تبيين أنها لا تقل عن سياحة بنيان في المعنى. الأول

وصول بلانكارنا إلى باب البرج المكتوب عليه الوصايا العشر. والثاني اجتماع الكرادلة داخلاً بلحاهم البيضاء وقد رفضوا أباطيل العالم. وغير ذلك توجد في



---

الرواية مشابهاة أخرى كالسائحين اللذين أنقذا من مدينة الهلاك وشرحا ما رأوه. ويطول بنا المقام جداً لو جئنا بكل مشابهة هنا.

وإن من يود أن يعرف شيئاً عن لل كفيلسوف ومصنف فما عليه إلا أن يراجع بعض الكتب المذكورة في ذيل هذا الكتاب أو يراجع الأصل الإنكليزي.



---

«كما أن الذي يكاد يموت جوعاً يسرع ويأكل بشراهة بسبب فرط جوعه هكذا عبدك في شديد الاشتياق للموت لأجلك ولمجدك هو يسرع ليلاً ونهاراً ليكمل العمل ويسفك دموعه ودمه لأجلك يا يسوع».

(من كتاب لل عن التأمل بالله)

«ان العاشق دائماً أعمى<sup>(١)</sup> واثلام الحقول المثمرة تحتاج إلى الدماء والدموع التي سماها اوغسطينوس دماء النفس».

(المؤرخ الفرنسي سباتير)

---

(١) قابل الممثل العربي عين المحب عمياء

## الفصل التاسع

### رحلته الأخيرة واستشهاده

قال علماء العصور الوسطى إن لتحصيل العلم خمس طرق الملاحظة والقراءة والإصغاء والمحادثة والتأمل ولكنهم نسوا أهمها جميعها وهي التألم. فلسفة لل علمته كثيراً إلا أن آلامه الشديدة صيرته قديساً. كان مفتاح أخلاقه المحبة وليس العلم وبتلك المحبة انقلب الفيلسوف مبشراً مرسلًا. ولم يكن آخر مشهد في حياة لل في روما أو في باريس أو في نابلس بين أصدقائه وتلاميذه بل كان على شواطئ إفريقيا حيث نفاه العرب مرتين.

سر لل كثيراً في مجلس فينا كما رأينا في الفصل الخامس لأنه رأى بعض أتعابه أثمرت إذ صدر الأمر بتعليم اللغات الشرقية في الجامعات الأوروبية وكان المنتظر من لل أن يصرف ما بقي من حياته في العمل الذي تعب لأجله كثيراً لا سيما وأنه كان في التاسعة والسبعين من عمره ولا بد أن تكون تلك

السنوات الأخيرة قد أثرت تأثيراً سيئاً على ذلك الهيكل القوي وتلك الروح الجسورة.  
ود أصدقائه لو يصرف أيامه الأخيرة في مهنة التعليم الهادئة بين أصدقائه المخلصين  
إلا أن رغبة لل لم تكن كذلك فكان يطمع أن يموت مرسلأ ليس معلماً للفلسفة متذكراً القول  
الذي يعيش بالحياة الحقيقية لن يموت.

وقوله هذا يذكرنا بما يقوله بولس في رسالته الثانية لتيموثاوس «بأنه يسكب سكباً  
ووقت انحلاله قد حضر» وقال لل أيضاً «كما تتجه البوصلة إلى الشمال كذلك أيها الإله يجب  
أن يتجه عبدك لمحبتك ومجدك وخدمتك كما تألمت أنت لأجلنا نحن. وقال أيضاً يريد الناس  
كلهم الموت عند الشيخوخة حيث تفارقهم الحرارة ويحل محلها البرودة ولكن إن شاءت إرادتك  
فلا تسمح أن أموت لأجل ذلك لأنني أفضل أن أموت في لهيب المحبة كما فعلت أنت لأجلي».

وعبارات أخرى كثيرة قالها لل مثل التي وصفناها في أول الفصل تبين مقدار اشتياقه  
لإكليل الاستشهاد ولا يأخذنا

العجب كثيراً من ذلك إذا علمنا شيئاً عن عصره وقومه فإنه قبل الجيل الثالث عشر مات أُلوف من الاسبانيين لأجل إيمانهم وأُلوف عذبهم المغاربة بقولهم أنهم سبوا النبي .

وكان بين الفرنسيين طائفة مولعة بالاستشهاد وكان كل أخ منهم يرسل إلى بلاد أجنبية يحب أن ينال التاج السماوي وأن يلبس الثوب الأرجواني .

وكانت روح الصليبية مالكة على الكنيسة ورؤسائها حتى بعد خيبتهم سبعة مرات متوالية في سعيهم للغلبة بالسيف وكتب واحد لفرسان هيكل سليمان «إن جندي المسيح يكون في أمان إذا قُتل . ويكون في أمان أكثر إذا قُتل . إذا قُتل يخدم المسيح وإذا قُتل يخدم نفسه» .

وكان الاعتقاد بالاستشهادات شائعاً أيضاً قبل العصور الوسطى بزمن طويل .

وكانت قصص الشهداء الأول هي آداب اللغة العامية التي كانوا يؤججون بها نار الغيرة في القلوب . وكانوا يستدلون من الكتاب أن الاستشهاد هو تكفير لذنوب الماضي وينوب

عن المعمودية وبه يدخل توأ إلى النعيم بدون أن يمر على المطهر.

والآيات التي استعملوها لهذا الغرض هي (لوقا ١٢ : ٥٠ ومرقس ١٠ : ٣٩ ومتى ١٠ : ٣٩ ومتى ٥ : ١٠ - ١٢) لا تفيد هذا المعنى مع احترامنا لروح تسليمهم.

ومن يطلع على مؤلفات دانتي المشهور يرى هذا الفكر يكاد يلمس وكانوا يعتقدون أيضاً أن الشهداء يرون طلعة المسيح المجيدة (مثل استفانوس) وان صلاة استشهادهم تقرب ملكوت المسيح.

إلا ان محض رغبتهم في الاستشهاد وكرههم المطلق لليهود والكفرة جعلهم أن ينسوا «أنه ليس سفك الدم بل سبب سفكه هو الذي يجعل الإنسان شهيداً».

أما لل فكان راقياً عن عصره في أغراضه وطرقه ولكنه لم يكن ولم يمكنه أن يكون خالياً من روح الوسط.

فبسالة وشجاعة ذلك الفارس في الثامنة والأربعين من عمره قبل أن يرى المصلوب لم تكن قد ماتت حينئذ بل منظر الأيادي المثقوبة بثت فيه قوة هائلة لحرب صليبية وكان يقول

كما قال جندي روحي في عصرنا وهو مطرود من البيت والوطن لأجل المسيح:

إن تركي كل مالي	واحتمالي للصليب
لاتباعي ذي الجلال	وهو لي كل النصيب
خدمة الرب المعلى	ريحها ربح جلي
فإذا يا صيت ولّ	يا بلايا اقبلي
أنت ربي يا إلهي	ثابت قلبي عليك
لا تروعني الدواهي	ضرها خير لديك
لست أخشى من اهانه	إذ مخلصي أهين
ارتجي منه الاعانه	بينما الناس تهين
وإذا نلت ابتساما	من محبة القدير
لست ارهب الظلاما	وهو لي نور منير
فلتمت كل المطامع	فيك يا أرض الظلام
فأنا بالرب قانع	والسما لي في الختام

وأن المخاطر والمصاعب التي وقفت سداً منيعاً في وجهه لل فردته عن سفرته الأولى في جنوه سنة ١٢٩١ هي بنفسها دفعته للسفر على شمالي إفريقيا في سنة ١٣١٤ لم تبرد محبته بزوال حرارة جسده وضعف شيخوخته بل بالحري كانت السبب في اشتياقه لنوال إكليل الاستشهاد ولرؤية قطيعه الصغير مرة أخرى. وقد زاده ذلك حماساً فعبّر إلى بوجيا في الرابع عشر من أغسطس واستمر يعمل سنة كاملة في الخفاء بين جماعة المهتمين الذين ربحهم إلى الدين المسيحي في سفراته الأولى.

وكان لل يسهب في شرح ذلك الأمر الذي لم يكن يتعب منه أبداً وهو تفوق الديانة المسيحية الطبيعي على الديانة الإسلامية كان يبين ذلك بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة للمهتمين ولكل من كانت له شجاعة تجعله يأتي ويتحد معهم في تلك الأبحاث الدينية. وقد عرف أن قوة الإسلام الحقيقية ليست ناشئة من الجزء الثاني من شهادتهم بل من الجزء الأول. فاعتقاد المسلمين بالتوحيد ومعرفتهم صفات الله هي حق وغلطتهم الجوهرية هي فكرهم بوحدانية اللاهوت المطلقة. إذاً نرى أن لل لم يصرف



وقته الثمين عبثاً ليطعن في رسالة محمد بل بالعكس قدم البراهين المتينة أن محمداً لم يدرك ذات الله تماماً بل كان في ضلال. فلو لم يكن لبطلنا الشيخ شيء آخر يوجب له الإكرام لكفى بمجادلته للمسلمين (وكانت الأولى من نوعها) فخراً عظيماً وتبيانياً أنه أعظم مبشر للمسلمين إلى وقتنا هذا.

وكان يقول لهم «إذا قلت أيها المسلم بحسب شريعتك إن الله أحب الإنسان لأنه خلقه ويرزقه من نعمه الكثيرة وبهبه خيرات وفيرة فالمسيحيون يقولون نفس القول. إلا أنهم يؤمنون بأكثر من ذلك إذ يقولون إن الله أحب الإنسان حتى صار إنساناً متحملاً للفقر والعار والموت والعذاب لأجلنا نحن الخطاة. وهذا مما لا يعتقد به المسلم أو اليهودي. أفلا تكون المسيحية التي تعلن محبة الله بطريقة لا يجاربهها فيه دين آخر هي الدين القويم».

وعلم لل أن الإسلام دين لا محبة كاملة فيه وانه يقدر بالمحبة أن ينتصر عليه. لأن الإسلام يعلم بإخاء خاص يعني للمسلمين وأما المسيحية فتظهر إخاء عاماً للجميع «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل يؤمن به بل تكون له

الحيوة الأبدية» (يوحنا ٣ : ١٦). علم لل أن القرآن ينكر التجسد وبذلك لا يجهل الابن فقط بل والآب أيضاً (متى ١١ : ٢٧).

ولم يكن لل يخاف البتة في حججه وبراهينه الاضطهاد والعذاب بل بالحري لسان حاله يقول:

إن أعداء الصلاح	جيشها	أسود
فعليلكم	أيهها	الجنود
راية الإيمان ترفع	والنفير	صاح
والحسام الحق يلمع	والنجاح	لاح
حربنا العظمى تشب	كاللظى	الشديد
إنما الفادي المحب	قائد	مجيد
نعمة الرب العظيمة	ضعفنا	تعيين
كيف نخشى من هزيمة	نصرنا	مبين

وقد ظل ذلك المرسل المسن عشرة أشهر في الخفاء يتكلم ويصلي مع المهتدين ويقنع الذين لم يقتنعوا وكان سلاحه الوحيد محبة الله العظمى في المسيح يسوع. وكان ترس إيمانه عقيدة

الثالوث الأقدس ودام عاملاً بمحبة وبعدم ملل مبيناً أهمية هذه العقيدة ليس من جهة علم اللاهوت فقط بل بالاختبار في حياة المسيحي.

وبسبب ذلك نرى كتابات لل وأقواله ممتلئة عن طول وعرض وعمق وعلو محبة المسيح.

وأخيراً إذ مل من احتجابه واشتاق للاستشهاد ذهب إلى السوق وقدم نفسه للشعب قائلاً أنا هو الذي أخرجتموه من مدينتكم فكان كاييليا يقدم نفسه لجمع من الأخابيين (١ مل ١٨: ١).

ولما وقف لل أمامهم هددهم بالغضب الآتي إذا هم داموا في خطاياهم وتكلم بصراحة كل الحق. ولا بد أننا نعلم نتيجة الأمر. امتلاً الجميع حسداً لشجاعته وتعصباً لعدم إمكانهم رد حججه فمسكه الرعاع وجروه خارج المدينة وهناك رجموه في ٣٠ يونيو سنة ١٣١٥.

ويقول البعض إن أصدقاءه حملوا ذلك القديس المجروح إلى الشاطئ وأخذوه في سفينة إلى ماچوركا مسقط رأسه ولكنه مات قبل أن يصل بالما. ويقول آخرون إنه مات حين

رجمه كاستفانوس خارج المدينة وبعد موته حملوا جسده إلى پالما في ماچوركا حيث وضع في كنيسة سان فرنسسكو. وبنوا له قبراً فخيماً في تلك الكنيسة تذكراً لأعماله المجيدة. وقد نقشوا على ذلك الضريح إفريزا من رخام هي بدلة للحرية وتوجد على كل جانب منه فناير من معدم للشمع وفيه نقش رسم للواقف وهو في ثوب الفرنسسكان وسبحة في منطقتة ويده ممسكتان في بعضهما كأنه يناجي ربه. وربما كانت هذه هيئته عندما رماه أولئك الرعاع بالحجارة. وتوالت على جسد ذلك الشيخ المسن تلك الأحجار ولم يكن من يرثي لضعفه.

واني أخال أنه لم يشابه استفانوس في كيفية موته فقط بل وفي صلاته الأخيرة أيضاً.

قالوا في القرون الوسطى إنه توجد ثلاثة أنواع من الاستشهاد أولها بالإرادة والعمل وهو أرقاها والثاني بالإرادة فقط من غير العمل والثالث بالعمل من غير الإرادة.

فالقديس استفانوس وجميع الشهداء الذين قتلوا بالسيف أو حرقت أجسادهم النار لأجل شهادتهم للمسيح هم من النوع الأول.

والقديس يوحنا البشير وآخرون غيره ممن ماتوا في نفي أو في شيخوختهم وظلوا يشهدون إلى آخر حياتهم بدون أن يبطش بهم أحدهم من النوع الثاني. أما أولئك الأطفال الأبرار الذين قتلهم هيروودس هم مثال للثالث.

وكان لل شهيداً بالإرادة والعمل ليس فقط في بوجيا حيث سلم روحه إلى خالقه بل في كل أدوار حياته من يوم اهتدائه كان على الدوام مستعداً للشهادة للحق «ليكمل نقائص شذائد المسيح في جسده لأجل جسده الذي هو الكنيسة».

وكان رجمه بالحجارة بينما بشر بالمسيح للمسلمين أفضل ختام لتلك الحياة النقية.

وقال نوبل إن لل كان أعظم المبشرين في القرون الوسطى بل كان أكبرهم شأنًا حتى أيام وليم كاري ولفنجستون فكان عليه من روح إيليا النبي وبولس المرسل واستفانوس الشهيد ومع أنه خاطر بنفسه إذ رمى نفسه بين أعداء المسيح إلا أن اشتياقه للسماء ورغبته في الوجود مع المسيح ومزاياه العجيبة كل ذلك خفف شناعة ذلك الفعل.

«من لا يحب لا يعيش ومن يعيش بالحياة الحقيقية لن يموت» (ريموند لل)

«لو تبعت الكنيسة خطوات هذا المبشر في جيله لكان هو قائد الكنيسة في التبشير بين الأمم أجمعين قبل وليم كاري بسبعة قرون» (جورج سمث)

## الفصل العاشر

### وإن مات يتكلم بعد

قال نيجاندور إن لل قد حاز الثلاث صفات التي يندر وجودها في فرد واحد وهي قوة ذهنية وقلب محب وقدرة في العمل فإذا علمنا أن لل قد حاز هذه العطايا الإلهية لا نقول إلا إنه كان أحسن نموذج لمن يريد أن يكون اليوم مبشراً بين المسلمين. فمن ذا الذي يتبع خطواته الآن؟

فهذا الذي دعاه هلفرخ أعظم إنسان في القرون الوسطى - وإن مات يتكلم بعد - والعمل الذي كان هو أول من أخذه على عاتقه لا يزال إلى اليوم غير تام. والمبشر اليوم للمسلمين يمكنه أن يرى انعكاس إيمان لل وصعوباته وتجاريه وآماله ورغباته.

ولا يمكن للإنسان أن يجاهد الجهاد الروحي مع الإسلام الذي هزم جيش الله الحي ثلاثة عشر قرناً إلا إذا تمنطق بتضحية الذات والإخلاص وروح المحبة والإيمان.

وكتابات لل فيها شعائر كثيرة حسنة جداً للتبشير

بين المسلمين في القرن العشرين. وما أحسن هذه الصلاة التي وجدناها في ذيل أحد كتبه «يا رب السموات وأب كل الدهور لما أرسلت ابنك ليلبس الطبيعة البشرية عاش هو ورسله الكرام في سلام خارجي مع اليهود والفريسيين وسائر الناس ولم يضطهد أحداً أو يقتل فرداً حتى ولم يؤذ مضطهديه. وبهذا السلام ربحوا الضالين إلى الحق وبهذا السلام اشتركوا معهم. وهكذا على حسب مثالك يجب على المسيحيين أن يعاملوا المسلمين ولكن حيث لا يوجد فينا تلك الروح المكرسة التي كانت في رسلك ورجالك الأبرار وإذ قد بردت المحبة في كل العالم فلذلك يجهد المسيحيون أنفسهم في أمور خارجية أكثر مما في حروب روحية». وبالأسف نقول إن روح البرودة لا تزال في كنيسة الله في أيامنا.

صدق لل في كلامه فإن حرب انجلترا مثلاً في السودان كلفها من الرجال والمال بقدر ما كلف كل الإرساليات للمسلمين في الجيل الماضي مئة ضعف. وغرض الانجليز كان لإخضاع المهدي الذي اغتصب العباد بالسيف والنار. أما الإرساليات مع



ضعف عملها رجالاً ومالاً فغرضها اهداء مائتي مليون لا يزالون في احتياج روحي .  
ففي القرون الوسطى كانت روح الغيرة متقدة على أخذ قبر خال من العرب أكثر بألف  
مرة من روح اليوم لربحهم للمخلص الحي . فبعد موت لل بستمئة سنة لا نتعب مع المسلمين  
بل لا نزال نقدم أعداراً عوضاً عن تبشيرهم . الحقول قد ابيضت أما الفعلة فقليلون . فمن يقدم  
نفسه اليوم للعمل؟

في شمالي إفريقيا حيث شهد لل للحق لم يبتدئ التبشير للمسلمين بعد ذلك إلا في سنة  
١٨٨٤! واليوم قد أشرق يوم جديد في مراكش وطرابلس وتونس والجزائر ومصر . ولكن ما  
أوهى المساعي التي تعمل في البلاد الإسلامية بالنسبة للفرص الحالية العظيمة . وما أكبر  
العمل الذي لا يزال أمامنا وها نحن بعد وفاة لل بستمئة سنة مع أن الفرق بين أيامه وأيامنا  
شاسع جداً . وما أحسن ما قاله جناب الدكتور موط في مؤتمر عام لتلامذة مدارس الكليات  
بأميركا مندهشاً من كثرة الحاضرين ومن غيرتهم الروحية «يجب أن نشدد هذه السنة بأكثر  
تدقيق على

شعارنا الذي هو تبشير العالم في هذا الجيل أكثر من كل السنوات الماضية وحيث كانت هذه الكلمة مناسبة في الماضي فلم لا تكون ملائكة بل بالحري سالحة في الحاضر. فلنا اليوم فرصة لا مثيل لها. فلم تكن الأبواب أبداً مفتحة كالיום فالوقت خطره شديد. إنها فرصة هامة وضرورية جداً لأننا نرى أمماً كثيرة اليوم في حالة قابلة للتجديد وللتغيير وذلك لنمو روح الوطنية وحب الوطن بسبب سرعة انتشار تأثيرات الخير والشر التي ندعوها بالتمدن الغربي. وبسبب علاقاتنا الخطيرة مع الأديان الغير مسيحية وبسبب انتصارات المسيحية التي لا توازيها انتصارات أخرى وبسبب النجاح الروحي في كل البلاد وبسبب قدرتنا الآن على نوال ذلك الميراث المعد لنا».

كل جملة من هذه الدعوة المهمة تبين بإيضاح تام حالة العالم الوثني بل والإسلامي أيضاً اليوم فقد شعرت مجالس الكنائس والمجامع بوحدة وأهمية العمل. وان احتكاك المدنية الغربية بواسطة التجارة والأديبات والحكومات الغربية قد حلت كل تلك العوائد القديمة الهيئية

في كتبهم وأفكارهم. وهي تضطر المتنورين من المسلمين أن يوفقوا بين إيمانهم الجديد بل أخلاق تمدنهم الجديد والقرآن القديم أو بنبذهما كليهما.

فالمدافعون عن الإسلام الجديد في الهند وتركيا وبلاد العجم وروسيا ومصر هم من جهة الإصلاح الأخلاقي والأدبي وترقية الفكر حلفاء المسيحيين وليسوا أعدائهم. وإنما نرحب بمساعدتهم لنا في مثل هذا الميدان وها قد أخذ الحجاب وتعدد الزوجات بالزوال كما اضمحل الرقيق قبلاً. ولا بد أن هذا التغيير العظيم في عالم الأدب سيتبعه تغيير القلوب أيضاً ويدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً.

وحالة المسلمين إزاء الكتاب المقدس اليوم غير التي كانت بالأمس في كل مكان. إذ حلت الإرادة للسمع والرغبة في الفحص محل التكبر والتعصب. وفي بعض مراكز العالم الإسلامي نرى أن العهد الجديد هو أكثر الكتب بيعاً. ونشجع بعضنا بعضاً بقول الرب على فم ارميا النبي (ص ٢٣ : ٢٩ - ٣٢):

«أليست هكذا كلمتي كنار يقول الرب وكمطرقة تحطم

الصخر الخ». ولا نفرح بانتشار الإنجيل فقط بل نرى في يومنا هذا يعتمد المتنصرون جهاراً بعد أن كانوا يخافون على حياتهم. وذلك ليس فقط في مصر بل في سائر البلدان أيضاً.

لقد جاء ملء الزمان الذي فيه ننتظر أموراً عظيمة من التقدير ونتجاسر أن نعملها معه وها نحن اليوم وجهاً لوجه أمام العالم الإسلامي كله ها نحن اليوم نعرف احتياجاتهم الجمهورية والأدبية والروحية تماماً. واليوم نرى الأبواب مفتحة كلها للدخول بل ومسمرة على المساند بتلك الأيدي المثقوبة.

اقتربت الساعة - فلذلك لنطلب نعمة لكي نقرع وندخل فيفتح الفتح أبواب كل الأمم وكوي السموات ويسكب علينا بركة لا تستطيع الكنيسة الوقوف تلقاءها بل القرع والدخول.

فيا أيها المسيحيون تمثلوا بريموند لل واقرعوا فبعد الفتح الدخول. وبعد الدخول الامتلاك لأن الفتح قد فتح ولا يمكن لأحد أن يغلق فادخلوا الأبواب المفتوحة واقرعوا الأبواب المغلقة حتى تفتح. الأبواب ليست مغلقة لأن الفتح حي ولكن كل باب سواء كان مفتوحاً أو مسدوداً يقدم لنا فرصة ويجعل

علينا مسئولية فتحذروا من كلمات المسيح المخيفة للفريسيين الذين اجتهدوا أن يقفلوا أبواب ملكوت السموات قائلاً «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنك تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون» (متى ٢٣ : ١٣) فهل أنت منهم؟

فهل يحق لنا أن نسأل مع الدكتور موط لماذا أخرج الله العالم بأسره من المجهول إلى المعلوم أمام أعيننا ولماذا جهز إرساليات تبشيرية كاملة العدد والعدد في بلادنا وبالبلاد الأجنبية اليوم ولماذا وضع اليوم موارد وأموالاً عظيمة تحت تصرف المسيحيين. هل يمكن تجاه إرادة الله وحالة اليوم أن نتأخر عن العمل؟

إن قصد الله هو تبشير كل العالم اليوم ومع صعوبة هذه المسؤولية وخطارتها فإن في ربنا يسوع المسيح وفي تابعيه الأمناء ما يكفل بأن نقوم بهذا العمل خير قيام.  
أفلا يجب أن يكون تبشير العالم الإسلامي في هذا الجيل هو شعارنا وبروجرام أعمالنا وبذا نكون قد أحسنا عملاً باتباعنا

لآثار ريموند لل. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا. فهلم للجهاد الروحي بالمحبة  
المسيحية:

حرب لها اضطرار	ما دمت في الدنيا
في الرب لي سلام	ومنييتي القصوى
يسوع في مقدم	لا أرهب البلوى
للمؤمن استخدام	في داره العليا
يا جند ربي قاتل	بالسيف والدروع
يا جند ربي الباسل	لا تخش ما يروع
تحت السلاح الكامل	حارب مع الجموع
تفز بنصر عاجل	تحت لوا يسوع



## فهرست الكتاب

وجه	
٣	إهداء الكتاب
٤	كلمة للمعرب
٥	مقدمة
٩	الفصل الأول - أوروبا والعرب في الجيل الثالث عشر
٢٤	الفصل الثاني - مسقط رأسه ونشأته
٣٤	الفصل الثالث - رؤياه المسيح ودعوته لخدمته
٤٥	الفصل الرابع - الاستعداد للعمل
٥٧	الفصل الخامس - في مونتبييلر وباريس وروما
٧٠	الفصل السادس - سفرته التبشيرية الأولى إلى تونس
٨٢	الفصل السابع - في أسفار وأخطار
٩٣	الفصل الثامن - فيلسوف ومؤلف
١٠٣	الفصل التاسع - رحلته الأخيرة واستشهاده
١١٥	الفصل العاشر - وان مات يتكلم بعد

## مؤلفات لل

يُقَالُ أَنَّ لِلَّ كَتَبَ أَرْبَعَةَ آلَافِ كِتَابٍ ضَاعَ أَكْثَرُهَا وَلَكِنَّا ذَكَرْنَا الْمَعْرُوفَ مِنْهَا إِجْمَالِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْقَارِئُ شَيْئًا مِنْ فِلْسَفَتِهِ أَمَا مِنْ أَرَادَ الْإِطْلَاعَ عَلَيْهِ تَفْصِيلِيًّا فَعَلَيْهِ بِالْأَصْلِ الْإِنْكِلِيزِي

### عدد الكتب

٦١	عن فنون مختلفة
٤	في النحو والبيان
١٥	في المنطق
٢١	في الفلسفة
٥	في علم النفس
١٣	في علوم شتى
٧	في الطب
٤	في الفقه
٦٢	في الاعتكاف والتكريس
٦	في التفسير والوعظ
١٣	في مواضيع متفرقة
٤٦	في المباحث والمجادلات
٦٤	في علم اللاهوت أعني التوحيد والثالوث الأقدس



---

## الكتب المستعملة في تجهيز هذا الكتاب (نقلاً عن الأصل الإنكليزي)

Helfferich: Raymund Lull und die Anfänge der Catalonischen Literatur, Berlin, 1858.

Neander: Church History, vol. iv., London, 1851.

Maclear: History of Christian Missions in the Middle Ages, London, 1863.

Tiemersma: De Geschiedenis der Zending tot op den tijd der Hervorming, Nijmegen, 1888.

Keller: Geisteskampf des Christentums gegen den Islam bis zur zeit der Kreuzzüge, Leipzig, 1896.

Noble: The Redemption of Africa, vol. i., New York, 1899.

Encyclop. Brit. ninth edition, vol. xv., p. 63.

McClintock and Strong's Cyclopeda, vol. v., p. 558.

Church Histories, Short History of Missions, by Dr. George Smith, etc.

“Acta Sanctorum,” vol., xxvii., pp. 581-676, 1695-1867.